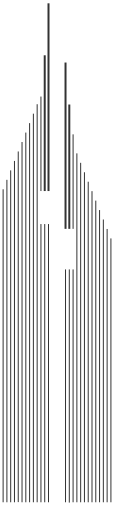

ترشيد الاستهلاك
في الإســـلام

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨ م

التدقيق اللغوي
شروق محمد سلمان

الإخراج الفني
حسن عبد القادر العزاني

دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي
إدارة البحوث

هاتف: ٦٠٨٧٧٧٧ ٤ ٩٧١+ فاكس: ٦٠٨٧٥٥٥ ٤ ٩٧١+
الإمارات العربية المتحدة ص. ب: ٣١٣٥ - دبي
www.iacad.gov.ae mail@iacad.gov.ae

دائـــرة الشـــؤون الإســـلامية والعمـــل الخيـــري
Islamic Affairs & Charitable Activities Department

حكومة دبي
GOVERNMENT OF DUBAI

ترشيد الاستهلاك في الإسلام

تأليف
د. كامل صكر القيسي
باحث أول بإدارة البحوث

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدين..

وبعد: فيسر « **دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي - إدارة البحوث** » أن تقدِّم إصدارَها الجديد « **ترشيد الاستهلاك في الإسلام** » لجمهور القراء من السادة الباحثين والمثقفين والمتطلعين إلى المعرفة.

ويأتي هذا الكتاب كاشفاً عن المنهج الإسلامي المتمثل في الوسطية والاعتدال في أمور الحياة ومنها الإنفاق حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الاسراء: ٢٩]، **وحين نتحدث عن ترشيد الاستهلاك، فإن توجيه الأنماط والعادات الاستهلاكية ضرورة ملحة، بحيث يتسم السلوك الاستهلاكي للفرد أو الأسرة بالتعقل، والاتزان، والحكمة، والرشادة الموضوعية والمنطقية، ومن ثم يكون استغلال الفرد لما يملك استغلالا متزنا وسلوكه سلوكا معتدلا، يتناسب مع تصوره الاعتقادي والأخلاقي وواجبه تجاه الأمة والمجتمع.**

وهذا الإنجاز العلمي يجعلنا نقدم عظيم الشكر والدعاء **لأسرة آل مكتوم** حفظها الله تعالى التي تحب العلم وأهله، وتؤازر قضايا الإسلام والعروبة بكل تميز وإقدام، وفي مقدمتها **صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد بن سعيد آل مكتوم**، نائب رئيس الدولة، رئيس مجلس الوزراء، حاكم دبي الذي يشيد مجتمع المعرفة، ويرعى البحث العلمي ويشجع أصحابه وطُلابه .

راجين من العلي القدير أن ينفع بهذا العمل، وأن يرزقنا التوفيق والسداد، وأن يوفق إلى مزيد من العطاء على درب التميز المنشود.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله على النَّبي الأمي الخاتم سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مدير إدارة البحوث

الدكتور سيف بن راشد الجابري

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على الرسول الكريم محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، **وبعد:**

فكما هو معلوم أن الدورة الاقتصادية تمر بأربع مراحل هي: الإنتاج والتبادل والتوزيع والاستهلاك.

والاستهلاك: هو آخر مرحلة من مراحل العملية الاقتصادية، لأنه يجسد الطلب النهائي على السلع والخدمات، ولا شك أن حاجات الإنسان ورغباته هي المحرك لجميع الأنشطة الاقتصادية[1].

ولقد منح الله الإنسان نعمة التمتع بنعم الله والطيبات من الرزق فقال تعالى: ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ** ﴾[2].

---

(١) الاستهلاك وضوابطه في الاقتصاد الإسلامي الدكتور عبد الستار رحيم ١٢.

(٢) سورة الأعراف الآية ٣٢.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»[1] أي يحب أن يتنعم عبده بنعمته ويتمتع بالطيبات من الرزق، فالأصل أن يسد الإنسان حاجته بنعمة الله مادامت تلك النعمة أباحها الله تعالى أو أمر بها، كثرت أو قلت، وليس في ذلك محظور، ما دامت الضوابط الشرعية تتحكم فيها، إلا أن المطلوب في استخدام هذه الإباحة في الاستهلاك وسد الحاجة فيها هو القصد والاعتدال، فإذا تجاوز الحدود الشرعية كان ذلك إسرافا، قد ينمو ويكبر فيكون تبذيرا، وقد يتعدى الأمر إلى البطر فيتحول إلى الترف المهلك، ولذلك تدخل الإسلام في مستوى الإنفاق ورسم له سبيلا سويا وطريقا سليما، في سياق منهجه الوسطي المعتدل في كل شيء، حتى لا ينحرف الإنسان فيقع في مزالق الترف والهلاك قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾[2].

---

(١) الترمذي ٥/ ١٢٣، المعجم الكبير للطبراني ١٨/ ١٣٥، السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٢٧١.

(٢) سورة الفرقان الآية ٦٧.

وقال: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[1] ونهى عن الإسراف فقال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[2].

وآخى بين الشيطان والمبذرين فقال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾[3]

ووعد أهل الترف والغطرسة والكبرياء بالخيبة والمصير البائس والسموم والحميم، وقد وصفهم بالفسق والظلم والكفر، قال تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾[4].

وقال أيضا﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴾[5].

وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[6].

---

(١) سورة الإسراء الآية ٢٩.
(٢) سورة الأعراف الآية ٣١، والأنعام الآية ١٤١.
(٣) سورة الإسراء الآية ٢٦ -٢٧.
(٤) سورة الواقعة الآية ٤١- ٤٥.
(٥) سورة المؤمنون الآية ٦٤.
(٦) سورة سبأ الآية ٣٤.

وقال: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾[1] وقال: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾[2].

ولما كانت الأمة اليوم تعاني من أزمات كثيرة- فكرية واقتصادية وحضارية- فإن المتأمل يجد أن الإسراف في كل الاتجاهات من أهم أسباب ضعفها وتراجعها، ولعل إنفاق مقدراتها المالية وتبذير ثرواتها التي مَنَّ الله تعالى عليها بها قد شكّل عائقا أمام تقدمها ورقيّها.

ولا شك أن الأمة تمر بمرحلة اندفاع نحو تقليد المجتمعات الأخرى لجلب السعادة الموهومة، ولذلك تبذل كل ما يجلب لها اللذة الآنية ويمتعها ولو لأمد قصير، متناسية مسؤولية ما كلفها الله به من إقامة شريعته وتحقيق العدالة والوصول إلى الرفاهية المبنية على أسس رصينة، تستنبط تطلعاتها في ذلك من القرآن والسنة المطهرة اللذين يقيمان التوازن والاستقرار في المجتمع.

(١) سورة هود الآية ١١٦.
(٢) سورة الإسراء الآية ١٦.

نشرت جريدة «الرياض» السعودية في العدد الصادر في ١٧/ ٤/ ١٤٢٣هـ أن «عشرة ملايين وخمسمائة ألف ريال ينفقها الشباب والشابات بمكة المكرمة شهرياً على شراء أجهزة الجوال الحديثة».

ونشر في موقع «إسلام أون لاين» عبر الإنترنت في ١٧/ ٤/ ٢٠٠١م أن شركة «آي. بي. كيه انترناشيونال» المتخصصة في أبحاث السياحة والسفر ومراقبة حركة السفر العالمي كشفت في تقريرها السنوي الذي صدر الاثنين (١٦/ ٤/ ٢٠٠١م) أن الخليجيين أنفقوا ٢٧ مليار دولار العام الماضي على السياحة في الخارج، فيما أنفق الأوروبيون ٢٥مليار دولار في الخليج خلال نفس الفترة. وجاء السعوديون في المقدمة في عدد الرحلات حيث وصلت عدد رحلاتهم إلى ٤٦ مليون رحلة و ١٦٠مليون ليلة، وفي دراسة قام بها الدكتور «حسن أبو ركبة» عن سلوك المستهلك السعودي خلص إلى أن ٤٠- ٦٠٪ من دخل الأسرة السنوي ينفق على الغذاء، و ١٥- ٢٠٪ على الكساء، ومثلها على الترفيه والعلاج والسياحة، و ٥- ١٠٪ على التأثيث ومثلها على

الأجهزة الكهربائية و ٥ - ١٥٪ على التعليم ومثلها على السكن ومثلها كمدخرات[١].

فإذا كنا بالفعل نتصدر الشعوب في الإنفاق فكيف نبني إذن؟ لا سيما ونحن نعلم أن حضارات الشعوب تقام على الإنتاج وليس الاستهلاك، لكن من المؤسف أن إحصاءات الاستهلاك تشير إلى أن معظمنا مصاب بمرض الاستهلاك الترفي، فنحن ننفق المال على سلع كمالية وفي مناسبات غير ضرورية إنفاقا يصل إلى حد الإسراف والتبذير بقصد التباهي وحب الظهور وتعويض نقص اجتماعي معين.

فهناك أنواع من السلع نحن لا نقدرها لصفاتها الذاتية، أو لاحتياجنا الفعلي لها ولكن وفقاً لما تمثله من مكانة اجتماعية.

فالحقيقة أن السلوكيات الاستهلاكية بدأت تتغير اليوم، إما بسبب ثورة المتغيرات الإنتاجية الكبيرة، أو لأننا ننتهج مسلكاً

---

(١) متى نشفى من مرض الاستهلاك الترفيهي ناهد باشطح (مقال منشور في جريدة الرياض في العدد ٢١٦٠٩ السنة ٣٨ بتاريخ الأحد ٢٥/ شوال/ ١٤٢٣هـ ٢٩/ ديسمبر/ ٢٠٠٢م .

استهلاكياً لإخفاء شيء في نفوسنا، كمستوانا المالي أو الثقافي مثلاً، ولذلك كان خيارنا عشوائياً، حسب ما يمليه ذوق المصمم أو حسب النص الإعلاني في التلفزيون، والاستهلاك بهذا المستوى يعد مرضاً اقتصادياً اجتماعياً لمخاطره وآثاره.

إننا في الغالب متلقون لما يتلى علينا، ولما تمثله سيطرة الإعلانات التجارية، تلك السيطرة التي تصرف عليها دول عالمية أموالاً باهظة.

ففي دراسة أعدتها صحيفة «الصنداي تايمز» عام ١٩٨٩م أثبتت أن الأموال المخصصة لدراسة الإعلان والأسواق تقدر بنحو خمسة مليارات دولار في العالم كله، وأن هناك أربع مجموعات عالمية تسيطر على سوق الإعلان هي الأمريكية والبريطانية والفرنسية واليابانية، وأن العناوين الإعلانية الكبيرة هي: البنوك، السيارات، العطور.

ما الذي تبقى لنا من وعينا إذا كنا نؤذي أنفسنا والبيئة من حولنا بالاستهلاك الترفي إذ إن الإحصاءات تشير إلى أن من العوامل التي تمثل نمطاً في الحياة - يؤذي البيئة - هي:

«السيارات، والبيوت الفخمة، ومراكز التسوق الكبرى، والسلع الاستهلاكية، ونوع الطعام المرتكز على الإفراط في أكل اللحوم، والغذاء غير الصحي». وأظن تلك العوامل مجتمعة تشكل نمط الحياة لدى معظمنا، فالناس يشترون السلع وهم لا يعرفونها متبعين الدعاية والإعلان سواء من الناس أو من وسائل الإعلام، إننا بحاجة إلى إعلام يدرك أهمية أن يكون المتلقي خاضعاً للاستهلاك دون وعي!!

ولذلك فإن الإنفاق الاستهلاكي: يأتي نتيجة طبيعية لضعف الالتزام بقواعد النظام الاقتصادي الإسلامي، وقد أدى ذلك إلى ارتفاع الميل الحدي للاستهلاك وزيادة الاتكالية والاعتماد على الخدمات الحكومية والزيادة المفرطة في الاستيراد للسلع والخدمات للترفيه والإنفاق البذخي، وكان من نتيجة هذا المسار الإنفاقي المغلوط في المسار التنموي في البلاد الإسلامية أن لجأت الدول الإسلامية إلى محاولة سد العجز بالاعتماد على الاحتياطي العام وعلى الاستثمار الخارجي. وحين نتمعن في الظواهر السابق ذكرها فأي منها لا يعاني منه مجتمعنا؟

ولما كانت مجتمعاتنا غارقة في سوق الترف تتقاذفها أمواج من العواصف الخاسرة من الفوضى في الإنفاق وتستنزفها أهواء الحضارة الزائفة، فقد جاء هذا البحث المتواضع ليبين صورة النمط الاستهلاكي على ضوء الجمع بين المفهوم الشرعي والاقتصادي، عسى أن تستدرك الأمة ما بقي من ثرواتها، وتنمّي قدراتها الإنتاجية عن طريق المحافظة عليها، وهي في الوقت ذاته تقيم العدالة الاجتماعية وتحقق التكافل بين أبنائها.

وقد تشكل البحث من مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث على النحو الآتي:

تمهيد: في تعريف ترشيد الاستهلاك وحاجة الأمة إليه.

المبحث الأول: المهمة الاستخلافية ودورها في توجيه الاستهلاك.

المبحث الثاني: ضوابط الاستهلاك.

المبحث الثالث: سمات المجتمع الإسلامي وأثرها في الاستهلاك.

المبحث الرابع: الاستهلاك الرشيد وسيلة لجلب البركة.

الخاتمة.

أسأل الله تعالى الرشد والصواب، وأن يمنحنا القصد والاعتدال والرضا، وأستغفر الله العظيم.

***

تمهيد

ترشيد الاستهلاك وحاجة الأمة إليه

الترشيد لغة: مصدر رشّد: سعى إلى ترشيده وهديه، وهو الاستقامة على طريق الخير مع تصلب فيه، وضده البغي، واسترشد الرجل: اهتدى وطلب الرشد. ورشد الرجل إذا أصاب وجه الأمر والصواب والطريق والهدى والاستقامة في الأمر الواضح والهداية والدلالة[1] ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾[2].

والاستهلاك: مصدر استهلك، يقال استهلك المال: أنفقه وأنفده. وأهلك المال: باعه. واستهلك الرجل في كذا: أجهد نفسه[3] فهو يعني النفاد والإنفاق وبذل الجهد والبيع.

واصطلاحاً: الاستخدام المباشر للسلع والخدمات التي تشبع رغبات الإنسان وحاجاته[4].

---

(١) لسان العرب ٣/ ١٧٦.

(٢) سورة غافر الآية ٣٨.

(٣) لسان العرب ١٠/ ٥٠٥.

(٤) النظام الاقتصادي الإسلامي محمد عبد المنعم عبد القادر / دار المجمع العلمي - جدة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ص١٥٧.

وترشيد الاستهلاك يعنى: الاستخدام الأمثل للمال وسد الحاجات والتوازن والاعتدال في الإنفاق والاستقامة في تحقيق مصلحة الإنسان وعدم البغي أو الشطط في البذل، والاستقامة على الحق، والهداية إلى طريق الرشد والخير والصلاح.

ترشيد الاستهلاك حاجة لنهضة الأمة:

إن من أولى وأهم الأسباب التي أضعفت الأمة الإسلامية والعربية ومكنت الدول الغربية من إحكام سيطرتها عليها حتى غدت تابعة لا حول لها ولا قوة، هو كونها أمة تستهلك بلا ضابط وتأكل أكثر مما تنتج، وهي في الغالب تستهلك المواد المستوردة من الدول الغربية، مما سمح لتلك الدول أن تفرض عليها شروطها، وتلوح من وقت لآخر بسلاح العقوبات الاقتصادية، من أجل إذلال تلك الدول وإخضاعها لتنفيذ سياساتها وأهدافها.

وحين نتحدث عن ترشيد الاستهلاك، فإن توجيه الأنماط والعادات الاستهلاكية ضرورة ملحة، بحيث يتسم السلوك الاستهلاكي للفرد أو الأسرة بالتعقل، والاتزان، والحكمة،

والرشادة الموضوعية والمنطقية، ومن ثم يكون استغلال الفرد لما يملك استغلالا متزنا وسلوكه سلوكا معتدلا، يتناسب مع تصوره الاعتقادي والأخلاقي وواجبه تجاه الأمة، وذلك يزيده نشاطا وحيوية، بحيث ينعكس على الإنتاجية ويؤثر في استهلاك الأسرة، واستهلاك المجتمع وحيويته عموما، ومن بعد ذلك تبدو آثاره على مستوى تحسين نمط حياة السكان، ورفع مستوى معيشتهم، وسد حاجاتهم، وتطوير الاقتصاد من خلال تنمية مختلف القطاعات، التي تشارك فيها الحكومة والسلطات المحلية، وهذه التربية المنسجمة مع القيم الأخلاقية يجب أن تنسكب في عالم الطفولة من خلال التربية الميدانية للطفل وحاجة الأسرة إلى تحمل المسؤولية في هذه التنشئة، وذلك لأن نمط السلوك الاستهلاكي يتأصل لدى الطفل منذ الصغر، وعملية التنشئة الاستهلاكية هي عملية مستمرة يتعلم الطفل من خلالها المعارف والمهارات والاتجاهات التي تتناسب مع حصوله على المنتجات.

ومما لاشك فيه أن دور الأسرة مهم، فالطفل يتعلم السلوك الاستهلاكي داخل أروقتها قبل أن يخرج إلى العالم الخارجي، وتستطيع الأسرة الواعية أن تدرب الطفل على التعامل مع المواقف الاستهلاكية كعملية الشراء ومفهوم الميزانية مثلاً، وإذا كانت حمى الاستهلاك الترفي طالت أصحاب الدخل المحدود في مجاراة للنمط العام فإنه لا يمنع أن يعرفوا عددا من العوامل يشير الخبراء إلى تأثيرها في عملية اكتساب الطفل مهارات الاستهلاك وهي:

١- التقليد والمحاكاة وأهمية وجود القدوة السليمة وبخاصة «سلوك الأم الاستهلاكي» في فترة الطفولة إذ يساعد على سرعة التعلم وغرس العادات والقيم والاتجاهات الصحيحة نحو الاستهلاك والتركيز على المفاهيم الخاصة بترشيده.

٢- مستوى الدخل النقدي.

٣- وسائل الإعلام وفنون الدعاية والإعلان.

٤- تعليم الأم للطفل، وتفاعل الأمهات مع الأطفال في أثناء اتخاذ القرارات الاستهلاكية.

٥- عامل الدين.

٦- الموقع الجغرافي والبيئة الاجتماعية.

٧- العوامل النفسية.

٨- العوامل الاقتصادية.. فإن الطبقة الاجتماعية تلعب دوراً أكبر من جميع العوامل في تحديد نمط الإنفاق الاستهلاكي والتعامل بالنقود.

٩- تدريب الأسرة للطفل للمشاركة في عمليات الاختيار والشراء، مع تعويد الطفل على الاقتصاد والتوفير وتقليل الفاقد في كل نواحي الحياة الاستهلاكية.

والسؤال المتبقي هل يمكن أن تعرف الأسرة دورها ومسؤوليتها في تنمية شخصية المستهلك الصغير، الذي سيغدو يوماً كبيراً ؟

إن غياب الضابط الاجتماعي في عملية الاستهلاك الترفي، يؤدي إلى هدر الإمكانات الاقتصادية وذهاب الكثير من الإمكانات التي لا يستفاد منها بشكل صحيح، والتي بإمكانها

أن تشـارك في عملية التكافل الاجتماعـي، فالثروات الاقتصادية ينبغـي في الدرجـة الأولى، أن تتوجـه إلى تقويـة البنيـة التحتيـة للمجتمع، وإن الاسـتهلاك الـترفي، هو ضرب من ضروب هدر الإمكانـات والقـدرات الاقتصاديـة في غير موضعهـا الطبيعي، فالحضـارات والمدنيـات لـدى المجتمعـات الإنسـانية قاطبة، لا تقوم على الاستهلاك وتداعياته الاقتصادية والاجتماعية، بل على المزيد من توجيه الثروات إلى عمليات الإنتاج في إطار مؤسسات وجمعيات ترجع بالنفع على الجميع.

إن القضية ليسـت سـلعاً نشـتريها وبضائع نسـتهلكها لكن الموضـوع أعمق من ذلـك بكثير، يحكي أحد الكتاب التونسـيين تجربـة غربته فيقول: «عندمـا ذهبنا نحن أبنـاء المغرب العربي إلى فرنسـا للدراسة كان لدينا يقين بأن فرنسـا تفتح لنا كل فضاءاتها لنتعلـم ونسـتفيد مـن نتاجهـا الحضـاري الرفيع، لكـن الرئيس (جـورج بومبيـدو) ألقـى يوماً كلمة قـال فيها لكل الفرنسـيين: «علمـوا هـؤلاء القادمـين من الـشرق اللغـة والثقافة الفرنسـية

ليشتروا كل شيء فرنسي بعد ذلك!» يومها كتب الكاتب إلى والدته في ريف تونس طالباً منها كتباً عربية يتحصن بها ضد اختراق (بومبيدو) لوجدانه، قال لها: «لا أريد أغطية أو بقلاوة أو مصاريف زيادة، أريد القبض على ذاتي، لأنهم يصادرونني جهاراً في فرنسا».

لقد تخلصت الشعوب العربية من الاستعمار، لكننا اليوم نعاني استعماراً من نوع آخر.. فالعولمة أدت إلى حدوث اختراق لكل شعوب العالم، ومن أهم ما جنته المجتمعات العربية أنها أصبحت مجتمعات استهلاكية[1].

إذن فالقضية ليست أن ندعو إلى ترشيد الاستهلاك، فنبدأ في الضغط على الأبناء في مصروفاتهم، وإنما الترشيد سياسة للتعامل مع المال الذي هو من الضرورات الخمس لديمومة الحياة، ترشيد الاستهلاك هو نمط يتوجه إلى إنماء النعم والثروات، عن طريق

(١) متى نشفى من مرض الاستهلاك الترفيهي ناهد باشطح (مقال منشور في جريدة الرياض في العدد ٢١٦٠٩ السنة ٣٨ بتاريخ الأحد ٢٥/ شوال/ ١٤٢٣هـ ٢٩/ ديسمبر/ ٢٠٠٢م.

العمل على تحويل هذه النعم إلى مصادر دخل دائمة لصالح المواطن المستهلك، إنه نقل هذه الثروات من دائرة الاستهلاك إلى دائرة الإنتاج.

إن الدعوة إلى ترشيد الاستهلاك لا يقصد بها الحرمان من التمتع بملذات الدنيا، بقدر ما يقصد بها العمل على تربية النفس حتى يتمكن المسلم من القيام بدوره في النهوض بواجبه الاستخلافي في الأرض وفقاً لقول الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]. كما يقصد منها الدعوة إلى التوسط وعدم الإسراف في الاستفادة من نعم الله عز وجل، لذا فإن هذه الدعوة إلى ترشيد الاستهلاك لا تنطلق من فراغ وإنما ترتبط بحسن عبادة المؤمن لربه وتفعيل دوره في حماية الأرض والبيئة وتأمين الحياة السليمة للأجيال التي تأتي بعده، ذلك أن العبادة بمعناها الشامل لا تقتصر على أداء الشعائر الدينية فقط، إذ إن حسن استغلال البيئة عبادة، والمحافظة عليها وصيانتها لتستمر

(١) سورة الذاريات الآية ٥٦.

إلى ما شـاء الله تنتفع بها البشرية كافة حتى يرث الله الأرض ومن عليهـا عبـادة، وإماطة الأذى عـن الطريق عبـادة، وعدم تلويث الماء والهواء عبادة، وحسـن اسـتعمال المرافق العامة والخاصة من طرق ومياه وكهرباء ومؤسسـات مختلفة (مدارس - مستشفيات - مصانع وغيرها) بأسلوب راشد عاقل عبادة، هذه السلوكيات الإسلامية البناءة فى التعامل مع مكونات البيئة الطبيعية والمشيدة، أمر الله سـبحانه وتعالى عبـاده بها بقوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1].

وليس ثمة شـك أن حسن استغلال مكونات البيئة الطبيعية والمشيدة وصيانتها فيه نفع كبير للبشرية كافة، وأن سوء استغلالها والعمل على سرعة اسـتنزاف مواردها أمر فيه ضرر بالغ للبشرية جمعـاء، وهـو فى نفـس الوقـت كفـر والعيـاذ بـالله بأنعـم الله، ولا ريـب أن الكفـر بأنعـم الله مدعـاة إلى المـآسي والكـوارث والجوع والخوف.

---

(١) سورة القصص الآية ٧٧.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

ومن نماذج سوء الاستهلاك في البيئة، الكثافة العالية في استخدام الأسمدة الكيماوية والمبيدات الحشرية، مما أدى إلى تسرب كميات كبيرة منها إلى الهواء ومصادر المياه وإفسادهما.

أما عن نماذج سوء الاستهلاك على الصعيد الخاص فمنها الإسراف في استخدام المياه في الاستعمالات اليومية، وفي استخدام الكهرباء وغيرها من وسائل الطاقة.

ومن الأمور اللافتة للاهتمام حدوث كثير من هذه التصرفات الاستهلاكية في أوساط إسلامية، حيث يستخدم الإسلام كحجة للإسراف، مثل إهدار المياه على تنظيف البيت، تحت حجة أن الإسلام يحث على النظافة والطهارة.

إن دور المسلم في تطبيق منهج الله في الوسطية وعدم الإسراف يعبر عن طبيعة هذه الأمة وأصالتها، قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[2].

---

(١) سورة الروم الآية ٤١.

(٢) سورة البقرة الآية ١٤٣.

والمسلم بحاجة إلى الرجوع إلى هذا الأصل، وسيادة منهج الوسط على المستوى الفردي، فإن سوء الإدارة والهدر في الأموال والأرزاق التي تبدو على تصرفات كثير من المسلمين تؤكد هذه الحاجة، فعلى عكس الإنسان الغربي الذي يشتري الفاكهة بالقطعة، يعرف المسلم بكرمه وسخائه داخل أسرته وخارجها - وهذا حسن، لكن المطلوب أن يكون بقدر معقول - لذا لا يكتفي الرجل بشراء كيلو واحد من طعام معين، ولا يرضى بشراء نوع واحد من الفاكهة، كما لا تطبخ المرأة نوعاً واحداً من الطعام، ولا تقبل بشراء ثوب واحد في السنة، والنتيجة ماذا؟ طعام يرمى في سلة النفايات، وأثواب تلبس سنة واحدة أو مرة واحدة ثم تنتهي موضتها فتزين الخزائن بدل أن تزين الأجساد، فإلى متى سيبقى المسلمون عاجزين عن تحديد الكميات المشتراة من الأغذية والحوائج حسب حاجة الأفراد والأسرة الضرورية والفعلية؟ وإلى متى سيبقون عاجزين عن إدراك أن الزيادة عن الحاجة قد تتلف أثناء التخزين الطويل وتقل قيمتها الغذائية وبالتالي تسبب خسائر مادية .

فالحاجة إلى تربية النفس للمسلم وصياغتها وفق منهج الإسلام وطبيعة هذه الأمة يحييها من رقاد طال، وسبات عميق أمات القلوب، ولن تحيا إلا بالرجوع إلى الكتاب والسنة النبوية، وقد قيل: من قل طعمه صح بطنه، وصفا قلبه، ومن كثر طعمه سقم بطنه، وقسا قلبه[1].

وورد في الحكمة: أن البطنة تذهب الفطنة[2]، وقال لقمان لابنه: إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة[3].

وإذا كانت الحاجة إلى ترشيد الاستهلاك ضرورية في كل حين، فهي أشد ضرورة في أيامنا هذه، لاسيما في هذه المرحلة التاريخية الهامة، التي تمر بها الأمة الإسلامية، وتحتاج من المسلم أن يستعد لمواجهة الحياة والتحسب للأزمات في أية لحظة، والمسلم

(١) عمدة القاري ٢١/ ٢٧، المستطرف ١/ ٣٩.
(٢) فيض القدير ١/ ٢٩٣، البيان والتبيين ١/ ٢٥٣، جمهرة خطب العرب ١/ ١٣٩.
(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور ١/ ٣٢٧٩، سبل السلام ١/ ٢٣٤، الشفا ١/ ٧٢.

إذا لم ينجح في جهاد نفسه وكبح شهواتها ولم يتغلب عليها، فهو سيعجز عن تحمل جهاد الأعداء، ذلك أن الدنيا لا تقر على حال، وعلى المؤمن أن يستعد في أوقات الرخاء على مواجهة أوقات البلاء، قال سيدنا عمر رضي الله عنه: «إياكم والتنعم وزي العجم وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب واخشوشنوا واخلولقوا وارموا الأغراض وانزوا نزوا»[1].

وقال ابن خلدون في مقدمته: «فالهالكون في المجاعات إنما قتلهم الشبع المعتاد السابق لا الجوع الحادث اللاحق»[2].

فالمسلم حريص على النهوض بمجتمعه وتحويله من مجتمع استهلاكي إلى مجتمع منتج، ذلك أن الزيادة الكبيرة في استهلاك الأفراد، تؤدي إلى إنفاق كل الدخل الفردي والقومي لتمويل شراء السلع الاستهلاكية، والتي في معظمها قد لا تكون من

---

(١) ابن حبان ٢/ ٢٦٨، عبد الرزاق ١١/ ٨٥، اخلولق الثوب: بلي، والنزو الوثبان ومنه الوثبان على الخيل/ لسان العرب ١٠/ ٨٨ و١٥/ ٣١٩.

(٢) تاريخ ابن خلدون ١/ ١٠٩.

السـلع المهمـة، وهذا التوجه لن يكون إلا إذا اسـتند إلى أسـاس اعتقادي صحيح.

❊ ❊ ❊

المبحث الأول

المهمة الاستخلافية ودورها في توجيه الاستهلاك

إن الهدف من وجود الإنسان على الأرض في الاقتصاد الإسلامي هو عمارتها، التي تقتضي العمل والحركة فيها، واستثمارها على أساس الضوابط العقائدية والقيم الأخلاقية المرتبطة بالتصور الإسلامي، لأن التزكية الروحية والبناء الأخلاقي تزكو بآمال الإنسان فتجعل منها مشروعاً للتنمية ليتحمل مسؤولية الاستجابة لكل طلب تمتد إليه يده لحساب الاستهلاك وفقاً لتلك الضوابط، لأن العملية الاستهلاكية ذاتها طاعة ينبغي أن تتوفر فيها الفضيلة والطهارة والصفاء، ولذلك فرق الاقتصاد الإسلامي بين السلع الطيبة والسلع الخبيثة، لأنه لا يدخل في العملية الاستهلاكية إلا السلع الطيبة التي توفرت فيها الضوابط الشرعية وهذا ما يميز الاقتصاد الإسلامي عن الاقتصاد الوضعي، حيث إن هذا الأخير يستهلك أي سلعة

تتمشى مع رغبات الأفراد بشكل مطلق، ولذلك فإن عملية الاستهلاك لا يمكن أن تعمل من دون الاعتماد على العقيدة التي تحكم النظرية الاقتصادية، لا سيما وأن نظرية الاستخلاف، التي تعني في المفهوم الفقهي: النيابة والقوامة في حدود المأذون به والمخول فيه[1] تتحكم في توجهات المسلم وتصوراته وتضبط كل سلوكياته، وفق نظام أقره الله تعالى لعباده في الحدود التي سخرها لهم، وما سلطهم عليه من ملكه، وذلك من خلال قوانينها العاملة،وهي[2]: أن الملك لله وأن الكون سخره الله للإنسان وسلطه عليه بما وهبه من عقل وإدراك وسمع وبصر، لاستثماره لمصلحته[3] ولذلك فهو مكلف بعمارة الأرض

(١) المال والحكم في الإسلام / عبد القادر عودة ٢٨ الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م دار النذير - بغداد .

(٢) نظرية الاستخلاف في الفكر الإسلامي وأثرها في بناء الشخصية / الدكتور عبد اللطيف هميم ١١ وما بعدها الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م مطبعة النواعير - العراق - الرمادي .

(٣) المال والحكم في الإسلام ٩، السوق الإسلامية المشتركة / الدكتور محمود محمد بابللي ٤٠ الطبعة الأولى ١٩٧٥م - دار الكتاب اللبناني - بيروت.

والانتفاع بخيراتها وفق منهج الله الذي وضعه للعمل به، وبذلك يكون صالحا لوراثتها .

فحين ينساب المستهلك في ظلال هذا التصور ويخضع لمنهج الله عزَّ وجلَّ فهو يعبر عن دوره في إقامة الخلافة وتحقيق العبودية لله تعالى على هذه الأرض،وقد جاء هذا المعنى واضحاً في العديد من النصوص القرآنية التي بلغت عشرين نصاً أو يزيد.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾[3] إلى غير ذلك من النصوص التي تدل على أن مركز الإنسان في الأرض بمثابة النائب والقائم.

---

(١) سورة فاطر الآية ٣٩.

(٢) سورة البقرة الآية ٣٠ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٦٥.

وفي ظل هذا التصور الإسلامي للحياة الإنسانية ودور الإنسان في الحياة تترسخ القيم الإيمانية، فالدنيا دار امتحان وليست هي دار مقامة، ومستقبل الإنسان في الآخرة مرهون بتصرفه في الدنيا وما قدم فيها من عمل، ومن كانت هذه عقيدته فإن الاستهلاك لا يشكل عنده هدفا لوجوده ولا غاية من غاياته، كما الحال عند من لا يفهم الأمر هكذا من الذين اتخذوا الدنيا متاعا ولهوا ولعبا.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾[1]، بل إن من رحمة الله عز وجل بالناس أن شرع لهم دينا قيما وسطا، لا جنوح فيه ولا مغالاة، ولذلك لم يترك المسلم يتهالك على الاستهلاك، ولم يدعه يعزف عنه، بل إن حسبه من الدنيا ما يقيم به نفسه ويتقوى به على معاده، يطلب الفلاح في الآخرة، وفي هذه الساحة من الوسطية والاعتدال يتحرك المسلم بكل طمأنينة وأمان[2].

(١) سورة محمد الآية ١٢.

(٢) الأسعار وتخصيص الموارد في الإسلام الدكتور عبد الجبار حمد عبيد السبهاني ٤٦٤.

فإذا ترسخت العقيدة واستبانت القيم الإيمانية يأتي بعد ذلك دور المنهج في تفعيل القيم وترسيخ المبادئ.

وعلى هذا الأساس حدد القرآن الكريم في بداية الأمر المواد التي نستهلكها، فجاء التعبير (بالطيبات) بمعنى المواد المستهلكة في ثمانية عشر موضعاً[1] التي يقابلها لفظ (الخبائث) التي تشمل المواد التي لا تصلح للاستهلاك[2] لأنها تؤدي إلى إضعاف طاقات البشر وفاعليتهم في عمارة الأرض - التي هي تكليف شرعي-، حيث إن الاستهلاك هدف الإنتاج، وبه يقيم الإنسان صلبه، وبه يستطيع مواصلة العمل، فهو المحصلة النهائية لتأدية الإنسان أهدافه التعبدية.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ ﴾[3].

---

(١) الاقتصاد الإسلامي / محمد منذر القحف ٣٨، انظر مثلاً: سورة البقرة الآية ٥٧، سورة النساء الآية ١٦٠، سورة المائدة الآية ٦، سورة الأعراف الآية ٣٢، سورة يونس الآية ٩٣.

(٢) سورة النساء الآية ٢، سورة المائدة الآية ١٠٣، سورة الأنفال الآية ٣٧.

(٣) سورة البقرة الآية ١٧٢.

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾[1].

وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»[3].

ولذلك قالوا عن الاستهلاك: هو ما يتوصل به إلى أداء الفرائض[4] لقوله عليه الصلاة والسلام: «**وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة حتى اللقمة التي ترفعها إلى في امرأتك**»[5].

ويقول الشاطبي عنه: «إنما هو خادم للأصل الضروري ومؤنس به ومحسن لصورته الخاصة، إما مقدمة له أو مقارناً أو

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٥١ .

(٢) سورة النحل الآية ١٤.

(٣) أحمد ٤/ ٤٣٨، الترمذي ٥/ ١٢٣، والطبراني في الكبير ١٨/ ١٣٥، سنن البيهقي الكبرى ٣/ ٢٧١.

(٤) الاكتساب في الرزق المستطاب لمحمد الشيباني ٦٢ .

(٥) أحمد ١/ ١٧٢ و ١٧٣، البخاري ٢٥٩١، سنن البيهقي الكبرى ٧/ ٤٦٧.

تابعاً، وعلى كل تقدير فهو يدور بالخدمة حواليه، فهو أحرى بأن يتأدى به الضروري على أحسن حالاته»[1].

وليس من المعقول أن يكلف الإنسان بمهمة الخلافة وهي أداء عبادة، ثم يحال بينه وبين مقومات قيامه بها.

يقول العز بن عبد السلام: «الإنسان مكلف بعبادة الديان باكتساب في القلوب والحواس والأركان ما دامت حياته، ولم تتم حياته إلا بدفع ضروراته وحاجاته من المآكل والمشارب والملابس والمناكح وغير ذلك من المنافع»[2].

ويقول: «فلو فقد أحدنا بيتاً يأويه أو ثوباً يواريه ومدفئاً يدفئه لما أطاق الصبر عليه»[3].

ولذلك يوصي عمر بن الخطاب عماله بسد حاجات الرعية، لأن الجوع مقدمة للكفر، فقال لهم: «ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم»[4].

---

(١) الموافقات ٢/ ٢٤.

(٢) قواعد الأحكام ٢/ ٨٠.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٧٠ .

(٤) أحمد ١/ ٤١، سنن البيهقي الكبرى ٩/ ٢٩، تاريخ الطبري ٢/ ٥٦٧، تاريخ دمشق ٤٤/ ٢٧٨، كنز العمال ١٦/ ١٩١، مناقب عمر لابن الجوزي ٩٥ .

السلعة الطيبة والسلعة الخبيثة:

إن السلعة الاقتصادية في المفهوم الإسلامي هي السلعة الطيبة، التي أنتجت في دائرة الحلال وتحمل كافة السمات الخاضعة للضوابط الشرعية، فهي إذن سلعة طيبة يحل استهلاكها، وأما السلعة الخبيثة: فهي التي لم تتوفر فيها الضوابط الشرعية فلا يحل استهلاكها.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾[1].

وقال أيضا: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[2].

وقال: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾[3].

قال القرطبي: «إن اللفظ عام في جميع الأمور يتصور في المكاسب والأعمال والناس والمعارف من العلوم وغيرها، فالخبيث من هذا كله لا يفلح ولا ينجب ولا تحسن له عاقبة وإن كثر، والطيب - وإن قل- نافع جميل العاقبة»[4].

---

(١) سورة المائدة الآية ٤ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٧ .

(٣) سورة المائدة الآية ١٠٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/ ٣٢٧.

وكما سبق: فإن مما لا شك فيه أن الارتباط العميق بين الاقتصاد والعقيدة هو المؤثر في تحديد النشاط الإنساني وحالاته ونتائجه[1].

فكما أن العمل في إنتاج الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير وفي كل ما يؤدي إلى هدم الأخلاق والإضرار بالغير حرام في الإسلام، لأنه من الخبائث، فكذلك استهلاك هذه حرام، لأنها تعد سلعاً خبيثة، فلا يجوز شرب الخمر ولا أكل الميتة ولا بيعها، وكذلك الدم ولحم الخنزير، لأن ما يحرم إنتاجه يحرم استهلاكه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

وقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾[3].

---

(١) الاستهلاك وضوابطه ٤٥.

(٢) سورة المائدة الآية ٩٠.

(٣) سورة المائدة الآية ٣ .

وقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1].

ويندرج في هذا الجانب كل عمل أو حاجة تؤول إلى أن يستخدم منافعها المسلم، وحيث إن إحياء الموات والمعادن والإجارة والمشاركة والمضاربة والمساقاة والمزارعة وغيرها من أشكال العقود، تحتوي على منافع، وهذه المنافع تعمل على سد حاجات متعددة ومتنوعة ولذلك تعرض الفقهاء لأحكامها وبينوا الصحيح والفاسد منها، تبعاً لما تؤديه من أغراض، فقالوا في الإجارة مثلا بعدم جواز إجارة ما منفعته محرمة كالزنا والنوح والغناء، وعدم إجارة الرجل داره لمن يتخذها كنيسة أو بيعة أو يتخذها لبيع الخمر أو للعب القمار[2] ونحو ذلك، وكذلك الحال في منافع باقي العقود.

***

(١) سورة الأعراف الآية ٣٣ .

(٢) المغني لابن قدامة ٦/ ١٤٩- ١٥٠ .

المبحث الثاني
ضـوابط الاسـتهـلاك

إن الاسـتثمار في الشريعة الإسـلامية لابـد أن يحقق المقاصد الشرعية التي تنقسـم إلى ضرورية وحاجية وتحسـينية، ولتحقيق هذه المقاصد يجب الاهتمام بكل الأنشطة التي تلبي هذا الغرض، بعيـدا عن الاسـتثمار الـذي يهدم الفكـر الإنسـاني، وقد حددت الشريعة الإسـلامية الحاجات الضرورية بما يتماشـى مع التعاليم الدينية والأخلاقية والقيم الإسلامية، مخالفة الأنظمة الاقتصادية المعاصرة التي ترى تحقيق الحاجات الإنسانية، سواء أكانت تلك الحاجات مشروعة أم غير مشروعة، حقيقية أم وهمية، استنادا على أن علم الاقتصاد علم محايد لا دخل له بالقيم ولا يقيد بالحاجة إلا إذا توفرت القدرة المالية التي تشبع تلك الحاجة في نظر الاقتصاد الرأسمالي، ولم تكتف الشريعة الإسلامية بتحديد الحاجة فقط،بل حرصت على المحافظة على المال وإحسان استغلاله.

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله كره لكم ثلاثا: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**»[1].

---

(١) البخاري ٢٢٧٧، مسلم ٥٩٣ .

ولذلك فإن تحصيله برفق، واستثماره بحكمة وروية، سبيل إلى إصلاحه والمحافظة عليه.

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أصلحوا أموالكم التي رزقكم الله عز وجل، فإن إقلالا في رفق خير من إكثار في خرق»[1] لأن الإفراط في طلب الفائدة من غير توازن في الطلب ربما كان سبب الحرمان وربما تكون شدة الاجتهاد في طلب الربح طريقاً إلى الخسران[2].

وإذا كان الرفق في الاستثمار والتوازن في طلبه يمنع ضياعه، فإن التوازن في استهلاكه وإنفاقه يحافظ عليه ويسهم في جمع الثروة وعدم ضياع الإنتاج، حيث لا قيمة للإنتاج إن لم يكن استهلاك متوازن يحميه.

ولتحقيق هذا الغرض جعل الإسلام الاستهلاك المتوازن وترشيد الإنفاق وعدم التخلص من السلع والآلات والأدوات

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٥٧٣، إصلاح المال ٥٤ .

(٢) أعلام الاقتصاد الإسلامي دكتور شوقي دنيا ١٩٦ مكتبة الخريجي الرياض ١٤٠٤.

والخدمات قبل أن تستهلك بقدر معقول وسيلة للتنمية وديمومة للإنتاج، ومن ثم عدَّ الإسراف والتبذير أمرين مفسدين لكل شروط إصلاح المال، ونقيضين لتنمية المال، أو جمع الثروة[1].

قال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾[2].

وقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[3] وقال عليه الصلاة والسلام: «**كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير مخيلة ولا سرف**»[4] وقال: «**ما عال من اقتصد**»[5].

وقال: «**من اقتصد أغناه الله ومن بذر أفقره الله**»[6].

---

(١) الاقتصاد الإسلامي، مفاهيم ومرتكزات / محمد أحمد صقر ٥٥ .
(٢) سورة الأعراف الآية ٣١ .
(٣) سورة الإسراء الآية ٢٩.
(٤) أحمد ٢/ ١٨١ و ١٨٢، البخاري ٧/ ١٨٢، ابن ماجه (٣٦٠٥).
(٥) أحمد ١/ ٤٤٧، الطبراني في الكبير ١٠/ ١٠٨ - ١٠٩ حديث ١٠١١٨، مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٢٥٢.
(٦) قال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٢٥٢ - ٢٥٣: رواه البزاز، تخريج الإحياء ٤/ ١٩٠٤.

فالإسراف والتبذير مدعاة إلى الترف، الذي هو سبب للهلاك ونزول العذاب، كما صوره القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[1].

وبناءً على ذلك، فإن العناية بالإنتاج لا تكفي للتنمية الاقتصادية، بل لابد لتحقيق هذا الهدف من الاهتمام بالاستهلاك وترشيده، لأنه الحلقة الأخيرة في العملية الاقتصادية، كما أن العمل أيضا لا يمكن أن يحافظ على الإنتاج وزيادته إلا إذا تحقق جانب الوفرة فيه وتوجيهه إلى الطرق المشروعة والمعقولة التي تحقق المصلحة للفرد والمجتمع على حد سواء .

فالإسلام وإن كان يبيح الاستهلاك ويأمر به، إلا أنه وضع له حدوداً وضوابط لا يجوز أن يتخطاها المستهلك، وبذلك تلتقي ضوابط العمل بضوابط الاستهلاك لتصب في معين واحد هو سد حاجة الفرد لتحقيق الخلافة في الأرض[2].

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٦.

(٢) الاستهلاك وضوابطه ٢٠٢.

ومفهوم الاعتدال والترشيد في الاستهلاك مفهوم متوازن وهو: استخدام المقدار المناسب دون إسراف أو تقتير.

وقد بين الإمام الغزالي ذلك بقوله: «والمقدار الذي يكسبه ينبغي أن لا يستكثر منه ولا يستقل، بل القدر الواجب، ومعياره الحاجة: والحاجة ملبس ومسكن ومطعم»[1].

ولعل مفهوم الكفاية الذي يقره نظام التوزيع الإسلامي يمكن أن يحدد لنا الاعتدال والترشيد في الاستهلاك وهذا يختلف من عصر لآخر

ويمكن تحقيق ذلك من خلال استخدام سلم الأولويات وفق المنهج الآتي:

١ - يبدأ المسلم بسد حاجات نفسه أولاً، ثم أهله، ثم أقربائه، ثم المحتاجين.

قال رسول الله ﷺ: «**ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك، فإن**

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ٣/ ٢٦٢.

فضل عن ذي قرابتك شيء، فهكذا وهكذا، يقول: بين يديك، وعن يمينك، وعن شمالك»[1].

٢- يقوم المستهلك المسلم بتلبية ضرورياته أولاً، ثم حاجياته، ثم تحسيناته، وهذه هي رتب المصالح عند علماء الأصول، حيث تعرض لها الجويني (ت ٤٧٨هـ)[2]، والغزالي (ت ٥٠٥هـ)[3] والعز بن عبد السلام (ت٦٦٠هـ)[4] وثلاثتهم شافعية، والشاطبي المالكي (ت ٧٩٠هـ)[5]، وابن خلدون (ت٨٠٨هـ)[6].

فالضروري: ما يترتب على فواته ضرر لا يطاق عادة كالموت والمرض الشديد «كالمآكل والمشارب والمساكن والمناكح والمراكب الجالبة للأقوات»[7].

---

(١) النسائي ٧/ ٣٠٤، سنن البيهقي الكبرى ٤/ ١٧٨، ابن حبان ١/ ١٢٤.

(٢) البرهان في أصول الفقه للجويني ٢/ ٩٢٣ و ٩٣٩.

(٣) المستصفى للغزالي ١/ ٢٨٦.

(٤) قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام ٢/ ٧١ .

(٥) الموافقات للشاطبي ٢/ ٨.

(٦) مقدمة ابن خلدون ٢/ ٨٧٥.

(٧) قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام ٢/ ٧١.

والحاجي: ما يرفع الحرج عن الناس ويدفع المشقة.

والتحسيني: (الكمالي) هو ما يتجاوز الحاجي إلى ما من شأنه رغد العيش، دون أن يدخل في نطاق السرف أو الترف أو التبذير، وذلك «كالمآكل الطيبات والملابس الناعمات والغرف العاليات والقصور الواسعات والمراكب النفيسات، ونكاح الحسناوات، والسراري الفائقات»[1].

قال ﷺ: «**من سعادة المرء المسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء**»[2].

و«مفهوم الحوائج الأصلية» يتراوح بين الضروري والحاجي بحسب الموارد المتوفرة، وقد تكلم الفقهاء عنها عند كلامهم عن الزكاة أو التوظيف المالي أو نفقات الأقارب أو الإفلاس.

٣- يتحدد مستوى الاستهلاك والإنفاق على النفس والعيال والمحتاجين بالقدرة المالية للشخص، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أحمد ٣/ ٤٠٧، ابن حبان ٩/ ٣٤٠، الأدب المفرد ١/ ٥٤.

٤- لا يجوز أن يشتمل الاستهلاك، سواء كان ضرورياً أو حاجياً أو كمالياً، على محرم، كالحرير أو الذهب للرجال، أو آنية الذهب والفضة، أو الخمر، أو الخنزير .

٥- يدعو الإسلام إلى الحد الأمثل في الاستهلاك، فيمنع كلاً من التقتير، والإسراف والتبذير[1].

---

(١) **التقتير**: ويدخل في البخل الذي كان يستعيذ منه رسول الله ﷺ، فهو يضعف الجسم والعقل والروح، ويقطع المسلمين عن أعمالهم وأنشطتهم، ويوهنهم، ويجرئ الأعداء عليهم، انظر: الغياثي للجويني ص٤٧٧ و ٤٨١ و ٤٨٢و ٤٨٥.

والإسراف: لغة مجاوزة الحد، أو القصد، أو الاعتدال، وهو ما انفق في غير طاعة.

وفي الفقه عرفه بعضهم بأنه: إنفاق الكثير في الغرض الخسيس، أو تجاوز الحد في النفقة، أو أكل ما لا يحل، أو الأكل فوق الشبع، أو تجاوز المباح إلى المحظور / انظر: نيل الأوطار ٥/ ٣٠١.

وفي السرف في الطعام قال السرخسي في المبسوط ٣٠/ ٢٦٧ (كتاب الكسب): «لأنه إنما يأكل لمنفعة نفسه، ولا منفعة في الأكل فوق الشبع، بل فيه مضرة، ولأن ما يزيد على مقدار حاجته من الطعام فيه حق غيره، فإنه يسد به جوعته إذا أوصله إليه بعوض أو بغير عوض، ولأن الأكل فوق الشبع ربما يمرضه. والأصل فيه أن رجلاً تجشأ في مجلس رسول الله ﷺ، فغضب رسول الله ﷺ وقال: كف =

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ * قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾[1].

وقال أيضا: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا * إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾[3].

وقال ﷺ: «**كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة**»[4].

= عنا جشاءك، فإن أكثرهم شبعا في الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة» / الترمذي ٤/ ٦٤٩.

فالإسراف إذن هو الإنفاق في حرام ولو قل، أو الإنفاق في مباح، إذا زاد على الحد.

والتبذير: أشد من الإسراف، فهو المغالاة في تجاوز الحد، والتوسع في الإنفاق على المحرمات والمعاصي والشهوات.

(١) سورة الأعراف الآية ٣١-٣٢.

(٢) سورة الإسراء الآية ٢٧.

(٣) سورة الإسراء الآية ٢٩.

(٤) البخاري ٥/ ٢١٨٠.

قال ابـن عباس رضي الله عنهما: «كل ما شـئت، واشرب ما شئت، ما أخطأتك اثنتان: سرف ومخيلة»[1].

ولا شـك فالمبذر لماله يعدّ في الشرع سفيهاً غير راشد، يحجر عليه عند جمهور الفقهاء[2].

فـإذا تمادى الإنسـان في السرف والتبذير فـإن ذلك يوقعه لا محالة في الترف المهلك.

الترف طريق الهلاك:

عندمـا تتأكـد في المجتمـع الإسـلامي وحـدة الاسـتهلاك ووسـطية النمط الاسـتهلاكي وتوازنه فإن كل القيم الإسـلامية والأحكام الشرعية تقف صفا واحـدا لتحارب الجنوح ومظاهر الانحراف عن هذا المنهج الإسلامي الرشيد.

فقـد ذم القرآن الكريم الترف والمترفين لأن الترف أشـد من التبذيـر، وربـما تكـون حالة يـؤول إليها المبذر، فيتوسـع في ملاذ

---

(١) المصدر السابق، ابن أبي شيبة ٥/ ١٧١.

(٢) المغنـي لابـن قدامـة ٤/ ٥٥٠، المبسـوط للسرخـسي ٧/ ٣١٥، بدائع الصنائع للكاسـاني ٦/ ١٧٦، نيل الأوطار ٥/ ٣٠١، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥/ ٣٠.

الدنيا وشهواتها، وتبطره النعمة وسعة العيش، وإذا انتشر الترف في الأمة أودى بها إلى الفناء[1].

والمترفون دوما بطانة الشيطان وهم أعداء الدعوات الإصلاحية لكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمصلحين في كل الأزمنة، لأن توظيفهم للعقائد الفاسدة ناتج عن خوفهم على المصالح الذاتية التي يسعون لتحقيقها في استغلال الفقراء والبسطاء من الناس، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[2].

وفي آية أخرى ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾[3] وقال: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾[4].

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٢/ ٥٠١ فصل في أن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم، و ٢/ ٥٤١ فصل في: أن طبيعة الملك الدعة والسكون.

(٢) سورة سبأ الآية ٣٤.

(٣) سورة الزخرف الآية ٢٣.

(٤) سورة هود الآية ١١٦.

ولما كان الترف هو الخرق الفاضح لهدف الاستهلاك والتعطيل لوظيفته في إدامة الموارد والمحافظة على نماء الثروات وحفظ التوازن في تلبية الحاجات للمجتمع، فقد عده القرآن الكريم سببا للهلاك والتدمير.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾(١).

وقال أيضا: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ * لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾(٢).

وقال: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾(٣). فهو خلل تستأثر فيه حفنة تظلم الآخرين حقوقهم وتستنزف جهدهم.

* * *

(١) سورة الإسراء الآية ١٦.
(٢) سورة المؤمنون الآية ٦٤- ٦٥.
(٣) سورة الواقعة الآية ٤٠ - ٤٥.

المبحث الثالث

سمات المجتمع الإسلامي وأثرها في الاستهلاك

١ - ترك الأنانية:

إن الإحساس بالآخرين والتعايش مع المجتمع سمو في الأخلاق وأصالة في نفس المسلم، وذلك لأن الأنانية واستئثار الفرد بما فضله الله به يعد جحودا لنعمة الله عز وجل، قال تعالى: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[1] وذلك لأن الإسلام يريد إقامة مجتمع متكافل يقوم على التعاون والتآزر والتواصل بعيدا عن الشح والأنانية، قال رسول الله ﷺ: «**ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم**»[2].

وقال: «**من كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس**»[3].

---

(١) سورة النحل الآية ٧١.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ١/ ٢٥٩، مصنف ابن أبي شيبة ٦/ ١٦٤.

(٣) البخاري ٣٠، مسلم ١٦٦١.

وقال: «**من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان له فضل من زاد فلْيعد به على من لا زاد له، فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أن لا حق لأحد منا في فضل**»[1].

إن من الممكن أن يكون النقص في متطلبات الإنسان ناتجا عن كسله وإهماله في السعي الجاد في تحصيلها، ولكن البطر والأثرة من قبل الآخرين، باستغلال الموارد والشح على أهل الحقوق،عوامل لها دور كبير في ذلك.

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما يصنع أغنياؤهم، ألا وإن الله يحاسبهم حسابا شديدا ويعذبهم عذابا أليما**»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عرض علي أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة فالشهيد وعبد مملوك أحسن عبادة**

---

(١) مسلم ١٧٢٨، أبو داود ١/ ٥٢٢، ابن حبان ١٢/ ٢٣٨.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ٤/ ٤٨ ، الترغيب والترهيب للمنذري ١/ ٣٠٦، مجمع الزوائد ٣/ ١٩٧.

ربه ونصح لسيده وعفيف متعفف ذو عيال وأما أول ثلاثة يدخلون النار فأمير مسلط وذو ثروة من مال لا يؤدي حق الله في ماله وفقير فخور»[1].

ويقول القرطبي: «ما رأيت قط سرفا إلا ومعه حق مضيع»[2].

ولذلك فإن إحساس المسلم بحاجة الآخرين يوجب عليه التنحي عن كل مظاهر الإسراف والتبذير والترف، وإلزام الذات أن تتوطن في دائرة الوسطية المتناغمة مع سد الحاجات للمجتمع، والتخلي عن معالم الأنانية، التي لا تحسب للآخرين حسابا، لأن الأنانية وحب الذات شر مقيت وداء مناف للإنسانية والأخلاق الإسلامية، قال ﷺ: «**ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا بلى إن شئت يا رسول الله، قال: فإن شراركم من ينزل وحده ويجلد عبده ويمنع رفده**»[3].

---

(١) أحمد ٢/ ٤٢٥، الترمذي ٤/ ١٧٦، ابن حبان ١٠/ ١٥١، الترغيب والترهيب للمنذري ١/ ٣٠٧، المستدرك للحاكم ١/ ٥٤٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٢٥١.

(٣) المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ٣١٨، الزهد لابن حنبل ١/ ٢٩٥، المستدرك للحاكم ٤/ ٣٠٠، مجمع الزوائد ٨/ ٣٣٤.

٢- الالتزام بالتعاليم النبوية:

ولكي ينتزع الإسلام تلك الأنانية جاءت التوجيهات النبوية أن لا يتعالى أحد على أحد في البنيان ولا يؤذي جاره بقتار قدره إلا أن يغرف له منها ولا يخرج ولده بالفاكهة فيغيظ بها طفل جاره إلا أن يصله.

قال ﷺ: «**من أغلق بابه دون جاره مخافة على أهله وماله فليس ذلك بمؤمن، وليس بمؤمن من لم يأمن جاره بوائقه، أتدري ما حق الجار؟ إذا استعانك أعنته، وإذا استقرضك أقرضته، وإذا افتقر عدت عليه، وإذا مرض عدته، وإذا أصابه خير هنأته، وإذا أصابته مصيبة عزيته، وإذا مات اتبعت جنازته، ولا تستطيل عليه بالبنيان فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذه بقتار ريح قدرك إلا أن تغرف له منها، وإن اشتريت فاكهة فاهد له، فإن لم تفعل فأدخلها سرا ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده**»[1].

---

(١) شعب الإيمان ٧/ ٨٣، الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٢٤٣، تخريج أحاديث الإحياء ٢/ ١٨٧.

وتأسيسا على هذا تعقب الإسلام مظاهر الاستهلاك الجانحة الخارجة عن منهج الوسطية، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «**تكون إبل للشياطين وبيوت للشياطين، فأما إبل الشياطين فقد رأيتها، يخرج أحدكم بجنيبات[1] معه قد أسمنها، فلا يعلو بعيرا منها، ويمر بأخيه قد انقطع به فلا يحمله، وأما بيوت الشياطين فلم أرها**» كان سعيد يقول: «لا أراها إلا هذه الأقفاص التي يستر الناس بالديباج»[2].

فالبيوت والسيارات الفاخرة الزائدة على الحاجة والتباهي بها، والبذخ في الأموال وإنفاقها على الملذات، وإن كان الأصل في ذلك أن يكون مباحا ما لم يستخدم في الحرام، لكنه يصرف عن المسؤولية تجاه الآخرين ويذهب الإحساس بحاجتهم، فقد أشاع الإسلام مبدأ التكافل بين المسلمين، وربط بين قلوبهم بالمودة والإخاء، وهذّب المشاعر والأحاسيس حتى كأن الناس جسد واحد، فإذا تجاهل المسلم أخاه وانشغل بملذاته أدى ذلك إلى

(١) الجنيبة هي الدابة التي تقاد، انظر: عون المعبود٧/ ١٦٩.
(٢) أبو داود ٢/ ٣٢، البيهقي الكبرى ٥/ ٢٥٥.

نسيان الواجبات فماتت فيه مشاعر التضحية والاهتمام بحقوق الأخوة، وغلبت عليه شهوة اللذة والتفرد والاستعلاء.

يقول الشاطبي: «إن فعل المباح سبب فى مضار كثيرة منها: أن فيه اشتغالا عما هو الأهم فى الدنيا من العمل بنوافل الخيرات وصدا عن كثير من الطاعات، ومنها: أنه سبب فى الاشتغال عن الواجبات ووسيلة إلى الممنوعات لأن التمتع بالدنيا له ضراوة كضراوة الخمر وبعضها يجر إلى بعض إلى أن تهوي بصاحبها فى المهلكة والعياذ بالله، ومنها: أن الشرع قد جاء بذم الدنيا والتمتع بلذاتها»[1].

ولذلك كان عمر بن الخطاب يتخذ الخشن من الطعام كما كان يلبس المرقع فى خلافته، فقيل له لو اتخذت طعاما ألين من هذا، فقال: «أخشى أن تعجل طيباتي يقول الله تعالى: أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا» [2].

---

(١) الموافقات ١ / ١١٢.

(٢) جامع البيان للطبري ١١/ ٢٨٨، تفسير ابن كثير ٤/ ٢٠٢، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧/ ١٧٥.

ولعل ما أشار به سيدنا عمر بن الخطاب على جابر يشير إلى الترشيد في نمط الاستهلاك مما يعزز الجانب التربوي في هذا الجانب، فقد أدرك جابر بن عبد الله ومعه حمال لحم فقال: «ما هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين قرمنا[1] إلى اللحم فاشتريت بدرهم لحما، فقال عمر: أما يريد أحدكم أن يطوي بطنه عن جاره أو ابن عمه؟ أين تذهب عنكم هذه الآية ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾»[2].

قال قتادة: «ذكر لنا أن عمر رضي الله عنه قال: لو شئت كنت أطيبكم طعاما وألينكم لباسا ولكني أستبقي طيباتي للآخرة. ولما قدم عمر الشام صنع له طعام لم ير قط مثله قال: هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وما شبعوا من خبز الشعير؟ فقال خالد بن الوليد: لهم الجنة. فاغرورقت عينا عمر بالدموع وقال: لئن كان

(١) شدة الشهوة إلى اللحم، أي اشتهاه، لسان العرب ١٢/ ٤٧٣.
(٢) الموطأ ٢/ ٩٣٦، المستدرك ٢/ ٤٩٤، ابن أبي شيبة ٥/ ١٤٠، شعب الإيمان للبيهقي ٥/ ٣٤، الترغيب والترهيب للمنذري ٤/ ١٠٣، إصلاح المال ١/ ١٠٤. والآية من سورة الأحقاف.

حظنا من الدنيا هذا الحطام وذهبوا هم في حظهم بالجنة فلقد باينونا بونا بعيدا»[1].

ودخل عمر رضي الله عنه على النبي ﷺ وهو في مشربته حين هجر نساءه قال: «ثم رفعت بصري في بيته فوالله ما رأيت فيه شيئا يرد البصر غير أهبة ثلاثة فقلت ادع الله فليوسع على أمتك فإن فارس والروم وسع عليهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله وكان متكئا فقال: «**أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا**». فقلت يا رسول الله استغفر لي»[2].

وقال حفص بن أبي العاص: كنت أتغدى عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخبز والزيت والخبز والخل والخبز واللبن والخبز والقديد وأقل ذلك اللحم الغريض وكان يقول: لا تنخلوا الدقيق فإنه طعام كله فجيء بخبز متفلع غليظ فجعل

---

(١) جامع البيان للطبري ١١/ ٢٨٨، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ١٧١.

(٢) البخاري ٢٣٣٦، مسلم ١٤٧٩.

يـأكل ويقول: كلـوا فجعلنا لا نـأكل فقال: ما لكـم لا تأكلون؟ فقلنـا: والله يـا أمير المؤمنين نرجع إلى طعام ألين من طعامك هذا فقال: يابن أبي العاص أما ترى بأني عالم أن لو أمرت بعناق سمينة فيلقـى عنها شـعرها ثم تخرج مصلية كأنها كذا كـذا أما ترى بأني عالم أن لو أمرت بصاع أو صاعين من زبيب فأجعله في سـقاء ثم أشـن عليه من الماء فيصبح كأنه دم غـزال فقلت: يا أمير المؤمنين إني لأراك عالمـا بطيب العيش فقال: أجـل ! والله الذي لا إله إلا هو لولا أني أخاف أن تنقص حسـناتي يوم القيامة لشـاركناكم في العيش ! ولكني سـمعت الله تعالى يقول لأقوام: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾[1].

ومـن هـذا القبيـل أيضا كـره بعـض العلـماء في التربية أكل الطيبـات واحتج بقـول عمر رضي الله عنه: «إياكـم واللحم فإن

(١) سـورة الأحقـاف الآية ٢٠ وانظـر: الجامع لأحكام القـرآن للقرطبي ١٦/ ١٧١، طبقات ابن سعد ٣/ ٢٨٠، كنز العمال ١٢/ ٨٤١.

لـه ضراوة كـضراوة الخمر»[1] أي عادة ينزع إليها كعادة شـارب الخمر في ملازمتها.

وهـذا من عمر قول خرج على من خـشي منه إيثار التنعم في الدنيا والمداومة على الشهوات وشفاء النفس من اللذات ونسيان الآخرة والإقبال على الدنيا»[2].

وفي هذا السـياق ما روي عن النبي ﷺ إذ رأى سـترا موشيا عـلى بـاب فاطمـة رضي الله عنها فقـال: «**مالي وللدنيـا**» فقالت: ليأمرني بما شـاء، قال: «**ترسـل به إلى أهل بيت بهم حاجة، ليست لي حاجة بزخرف الدنيا**»[3].

وقد روي أن النبي ﷺ نزع أسـتارا في بيت عائشة رضي الله عنها قائلا: «**إن الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين**»[4].

---

(١) الموطأ ٢/ ٩٣٥، مسلم ٣/ ١٢٠١، كنز العمال ٥/ ٧٢٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧ / ١٧٥.
(٣) البخاري ٢٤٧١.
(٤) مسلم ٢١٠٧.

روى سالم بن عبد الله بن عمر قال: أعرست في عهد أبي فآذن أبي الناس فكان أبو أيوب فيمن آذن وقد ستروا بيتي بخباء أخضر فأقبل أبو أيوب مسرعا فاطلع فرأى البيت مستترا بخباء أخضر فقال يا عبد الله أتسترون الجدر؟ فقال أبي واستحيا: غلبتنا النساء يا أبا أيوب فقال: من خشيت أن يغلبنه فلم أخش أن يغلبنك ثم قال لا أطعم لكم طعاما ولا أدخل لكم بيتا ثم خرج[1].

وعن محمد بن كعب قال: دعي عبد الله بن يزيد إلى طعام فلما جاء رأى البيت منجدا فقعد خارجا وبكى قال فقيل له ما يبكيك قال كان رسول الله ﷺ إذا شيع جيشا فبلغ عقبة الوداع قال أستودع الله دينكم وأماناتكم وخواتيم أعمالكم قال فرأى رجلا ذات يوم قد رقع بردة له بقطعة قال فاستقبل مطلع الشمس وقال هكذا ومد يديه ومد عفان يديه وقال تطالعت عليكم الدنيا ثلاث مرات أي أقبلت حتى ظننا أن يقع علينا ثم قال أنتم اليوم

(١) المعجم الكبير للطبراني ٤/ ١١٨.

خـير أم إذا غدت عليكم قصعة وراحت أخـرى ويغدو أحدكم في حلة ويروح في أخرى وتسترون بيوتكم كما تستر الكعبة فقال عبـد الله بن يزيد أفلا أبكي وقد بقيت حتى تسـترون بيوتكم كما تستر الكعبة»[1].

وعن ابن عباس وعلي بن الحسـين عن النبي ﷺ «**أنه نهى أن تستر الجدر**»[2].

يقول ابن قدامة: «إذا ثبت هذا فإن ستر الحيطان مكروه غير محـرم وهذا مذهـب الشـافعي، إذ لم يثبت في تحريمـه دليل، وقد فعله ابن عمر وفعل في زمن الصحابة رضي الله عنهم وإنما كره لما فيه من السرف، كالزيادة في الملبوس والمأكول وقد قيل: هو محرم للنهـي عنه والأول أولى فإن النهـي لم يثبت، ولو ثبت لحمل على الكراهة لما ذكرناه»[3].

---

(١) البيهقي في الكبرى ٧/ ٢٧٢، الزهد لابن حنبل ١/ ١٩٧.
(٢) البيهقي في الكبرى ٧/ ٢٧٢، وفي شعب الإيمان ٥/ ٢٥٦.
(٣) المغني ٨/ ١١٤.

٣- الفهم العميق لمقاصد التشريع الإسلامي:

إن الشريعة الإسلامية تناغي عمق الإيمان وسمو الروح في الإنسان، وتنمي الحس المسؤول إزاء الموارد، وتكرس الجهود لتنميتها وتحاصر كل عارض يعطل وظيفتها، لكي تؤدي تلك الموارد دورها دون الحاجة إلى الترف المجافي للوسطية واحتكارها في استخدامات لا ضرورة فيها ولا حاجة لها، وذلك لأن قانون الاستهلاك أو الاستعمال في الإسلام يجب أن ينسجم مع قانون التسخير، واستخدامها في غير ما خلقت له يتنافى مع هذا القانون.

قال رسول الله ﷺ: «**إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر، فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض، فعليها فاقضوا حاجاتكم**»[1].

جاء في عون المعبود: «قال القاري: والمعنى لا تجلسوا على ظهورها فتوقفونها وتحدثون بالبيع والشراء وغير ذلك بل انزلوا

(١) أبو داود ٢/ ٣٢، سنن البيهقي الكبرى ٥/ ٢٥٥.

واقضوا حاجاتكم ثم اركبوا، قال الطيبي: كناية عن القيام عليها لأنهم إذا خطبوا على المنابر قاموا... قال الخطابي: ما محصله إنه قد ثبت عنه ﷺ أنه خطب على راحلته واقفا فدل على أن الوقوف على ظهورها إذا كان لإرب أو بلوغ وطر لا يدرك مع النزول إلى الأرض جائز وأن النهي انصرف إلى الوقوف عليها لا لمعنى يوجبه بأن يستوطنه الإنسان ويتخذه مقعدا فيتعب الدابة ويضر بها من غير طائل»[1].

فلكل سلعة استعمال يليق بطبيعتها، فإن انحرفت عن وظيفتها أصابها الخلل، فيجب توفير طاقة الدابة لما خلقت لأجله، والوقوف على الأرض أو الجماد يغني عن الوقوف على الدابة، وبذلك تتوفر الطاقة الكامنة فيها، لتستخدم في السير وقطع الطرق في المسافات البعيدة، واستخدامها منابر وأماكن للوقوف على ظهرها والمكوث زمنا طويلا وهي واقفة تعدٍ على وظيفتها الأصلية، فإن هذا الاستخدام قد هيأ الله عز وجل الأرض بدل الدابة وسخرها هي لدور آخر يناسب خلقتها.

---

(١) عون المعبود ٧/ ١٦٩.

وهـذا المعنـى يشـمل كل طاقـة إنتاجيـة أو ثـروة وطنية أو مصلحـة فرديـة أو جماعيـة لكي يراعـى فيها أسـاس الخلقة وما جبلـت عليـه من المنافـع التي تؤديها وفـق الضوابـط التي تحكم العملية الاستهلاكية وتراعي مصلحة الآخرين.

والمـواد المعدة للاسـتعمال أُنتجت لسـد الحاجات، تنسـاب بشـكل طبيعي في أصل الخلقة لتأدية دورهـا، وهي بذلك تكون صالحة لديمومـة الحياة وتوفير الأمن الغذائـي والحاجي للبشر، فإن تخللها إسراف أو تبذير أو ترف تلكأ دورها وضلت طريقها. قال ﷺ: «**لا تسرفوا**»[1].

وقـال: «**ما ملأ آدمـي شرا من بطن بحسـب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لنفسه**»[2].

وبذلك يتبين أن نمط الاسـتهلاك الوسـطي والرشيد الذي صاغت المعالم الشرعية والقيم الإيمانية حدوده هو الذي يتمشـى

(١) -المعجم الكبير للطبراني ٨/ ٦٩، مصنف عبد الرزاق ٤/ ١٤٥.
(٢) سنن الترمذي ٤/ ٥٩٠، ابن حبان ٢/ ٤٤٩، المعجم الكبير ٢٠/ ٢٧٢، المستدرك ٤/ ٣٦٧.

مع شروط الواقع ومقتضيات العصر ويكفل سلامة الفرد والمجتمع ويحفظ الموارد من الهدر ويصنع السلامة والثروة وينمي الإنتاج، وذلك لأن الاستهلاك يعتبر أحد مكونات الدخل القومي لأي بلد، كما أنه أحد مؤشرات الرفاهية في المجتمع، وتصب كل دراسات سلوك المستهلك في محاولة معرفة محددات الاستهلاك، وتوازن المستهلك، كما يعتبر مفهوماً منافساً للادخار؛ حيث يعتبر الادخار تأجيلاً للاستهلاك في الوقت الحاضر إلى استهلاك مستقبلي، وبمعنى آخر على مستوى الاقتصاد الكلي هو: تنازل الجيل الحالي عن جزء من الاستهلاك الحالي لصالح الأجيال القادمة؛ وذلك لأن الدخل يمكن تقسيمه إلى استهلاك إضافة إلى ادخار ولا بد من تحقيق موازنة معقولة بين الاثنين تؤدي إلى الوصول إلى مستوى الإشباع المطلوب. ومن هنا يتضح لنا أن السلوك الاستهلاكي يفترض أن يبدأ عندما تعطي السلعة أو الخدمة المستهلكة أعظم إشباع ممكن ويستمر استهلاكها حتى يصل هذا الإشباع أو المنفعة إلى الصفر،

وهي النقطة التي يفترض أن يتوقف الاستهلاك عندها أو قبلها بقليل، وعليه فإن القول الشائع «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع» هو قاعدة استهلاكية سليمة تعني ضرورة توفر مبدأين أساسيين:

١- أن يتم الاستهلاك عندما تعطي السلعة أعظم إشباع ممكن، وهذا لا يتحقق إلا بوجود شعور حقيقي بالحاجة إليها «حتى نجوع».

٢- أن يتوقف الاستهلاك عند انتفاء المنفعة أو الإشباع الذي تقدمه وهي مرحلة الشبع، وبالتالي تكون السلعة قد حققت الغرض الذي اشتريت من أجله وانتفت الحاجة إلى استهلاك المزيد منها، فكل استهلاك لا يبدأ عندما تعطي السلعة أعظم إشباع ممكن يعتبر تبذيراً من أساسه؛ لأنه لا وجود لحاجة حقيقة لهذه السلعة.

وكل استهلاك يتجاوز ذلك يُعتبر إسرافاً؛ لأنه تجاوز المقدار الكافي لتلبية الحاجة المفقودة والذي عادة ما يقع من المستهلكين؛

لأنهم لا يسعون إلى معرفة ذلك المقدار من السلع والخدمات الذي يلبي حاجاتهم بالفعل ولو على وجه التقريب، وهو أمر يختلف من شخص لآخر ولا يتم معرفته إلا مع التدريب عليه حتى يصبح جزءاً من سلوكيات الشخص نفسه، وعادة ما يكون الاستهلاك الذي لا يحقق المبدأين السابقين استهلاكاً تفاخرياً لأغراض المباهاة وليس لتلبية حاجة حقيقية وهو سلوك ينبع من التنافس في تقليد الآخرين والرغبة في التمييز، وهو ما حذر منه ﷺ حينما حذر من التنافس في الدنيا، فالاستهلاك في حد ذاته ليس مذموماً، ولكن المذموم فيه هو الإسراف والتبذير من الناحية الشرعية ومن الناحية الاقتصادية، وقد دفع ذلك معظم البلدان إلى فرض ضرائب عالية على استيراد وتوزيع السلع التي تتسم بطابع الترف والمباهاة للحد من السلوكيات الاستهلاكية السلبية على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي، كما حددت معظم البلدان حداً أدنى لمستوى الدخل الذي يجب أن يتحصل عليه أي عامل أو موظف في الدولة، والذي يمثل الحد الأدنى لمستوى المعيشة في البلد المعني، وإذا لم يوفق في الحصول على عمل يوفر

لـه هـذا الدخل؛ فيلتزم المجتمـع بتوفيره له على هيئـة إعانة مالية ليتمكن من اقتناء السلع الضرورية.

ولضمان تحقيق العملية الاستهلاكية ينبغي أن تتوفر مجموعة من الأسـس المتينة، وعلى رأسـها القناعة بما تيسر ودام، خير من التمسك بما لا يدوم، أو بما لا طائل من ورائه.

قـال ﷺ: «**لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**»(١).

وليـس معنـى هـذا أن الإنسـان يستسـلم ويرضـخ للحالة التـي وجـد عليهـا، وإنـما القناعـة تعنـي رضـا الإنسـان بنفسـه وبقدراته وإمكاناته، قال ﷺ: «**قد أفلح من أسلم، ورزق كفافا، وقنعه الله بما آتاه**»(٢).

فالمطلوب من الفقير ألا يبقى مكتوف اليدين، قائلا إنه راضٍ بقضـاء الله وقدره في فقره، وإنما عليـه أن يعمل جاهدا للخروج

(١) البخاري ٦٠٧٢، مسلم ١٠٤٨.
(٢) أحمد ٢/ ١٦٨، مسلم ١٠٥٤.

مـن بوتقة الفقـر المدقع إلى حـد الكفاية، وهذا مطلـب إلهي قبل أن يكون مطلب الشـخص الفقير نفسـه، مع الوضع في الحسبان أن الأرزاق بيد الله. وبين القناعة والسياسـة الرشيدة للاستهلاك علاقة وثيقة، تتمثل في عدم الاغترار بما تبثه الشركات الإعلانية، ودور التجـارة ومراكزهـا، من صور إشـهارية، لمـا يحتاجه، ولا يحتاجه المستهلك.

فالقناعـة تتمثـل في طلـب الـضروري والاسـتغناء عـن الكماليـات، بالتحديـد الواضـح لضروريـات الحيـاة الأسريـة لتوفيرها قدر الإمكان، مع الموازنة بين الضروريات نفسها.

فـإذا توفـرت القناعة تعمق الإحسـاس بالبركة مـن الله عز وجـل، التي يعتقدها المسـلم ويعمـل بها في واقـع الأمر؛ لكونها تعنـي الزيادة والنـماء والحفظ، فالمُسَّـلم به عند المسـلم، أن ليس كل ما يتمناه المرء يطلبه، وإنما يسـير وفق نظرية «الاقتصاد» التي يتم فيهـا المقاربة والموازنة بين المدخلات والمخرجات قال تعالى: ﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ ﴾[1].

(١) سورة لقمان الآية ١٩.

والقصد يعني الاعتدال والتوسط.

وبين القناعة والبركة ارتباط وثيق في أن يقنع المسلم بما عنده ويسأل الله تبارك وتعالى أن يبارك له فيه، فإن طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وهذه قاعدة جليلة عظيمة، جاء بها قول المصطفى ﷺ: «**طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية**»[1].

فالمسلم لا يجنح نحو إشباع رغباته كماً وكيفاً، إنما يضع التوازن في سلم حياته كلها قدر المستطاع، ليأخذ بيده نحو الحياة الأزلية، في جنة الخلد إن شاء الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾[2].

فحين نفقه هذه الحيثيات ونتشبث بتلك الأسس، فإن سياسة ترشيد الاستهلاك ستعطي ثمارها، وتعكس فقه الإنفاق وآلياته، فليس كل سلعة يجب أن تُشترى، وليس كل مال يجب

---

(١) البخاري ٥٠٧٧، مسلم ٢٠٥٩.

(٢) سورة القصص الآية ٧٧.

أن ينفـق، وليس المال الكثير هو أمـارة الغنى، ولا قلته هي أمارة الفقر، لكن الاعتدال في إنفاق المال من السـجايا النبيلة التي أمر بها الإسلام.

وأول آليـة للإنفاق هـي معرفة أوجهه ومداركـه؛ فالإنفاق في الخـير والحـلال والطيبات أول أبوابه، بـدون إسراف في شراء الكماليات، أو التوسع بغرض التباهي.

***

المبحث الرابع
الاستهلاك الرشيد وسيلة لجلب البركة

إن الترشيد عند المسلم يعني الشكر لله عز وجل، حين أطاعه باستخدامه كل طاقة فيما خلقت له، وفي هذا نماء للنفس وطهارة للقلب وبركة في السلوك، فهو يحس أن هذه النعمة أو تلك محفوظة من كل سوء، يفتح الله له بها أبواب الرزق ومسالك الخير التي يحقق بها كفايته، معتقدا أن الله سينمي له ما أعطاه استجابة لوعد الله عز وجل قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1].

وما دام الشكر وسيلة للزيادة سواء كانت هذه الزيادة حسا أو معنى ـ كأن تحفظ النعمة وتنمو أو يدفع عنها السوء والهلاك والزوال ـ فإنها في حساب المسلم وعقيدته تسمى البركة التي ذكرت كثيرا في القرآن والسنة النبوية،وجرت على ألسنة الصالحين في كل زمان.

فالبركة هي ثمرة الطاعة، وهي من الأسس المعتمدة في عقيدة المسلم وتصوره، وقد لا يفهمها من نظر إلى الحسابات

(١) سورة إبراهيم الآية ٧.

الآليـة فقط وابتعد عن المشـاعر الإيمانية وحجبته قوانين الأرض عـن إدراك لغـة الإيـمان التـي يتعامـل بهـا المؤمـن في اسـتخدام الأسـباب والمسـببات، وذلك لأن المسلم يسـتجيب باستخدامه العوامـل لكنه يضـع النتائج وفق القاعـدة الإيمانية التي يحس بها وراء ذلك.

فالبركة هي: النماء والزيادة والسـعادة والاتساع والكثرة في كل خير[1].

يقول النووي: «وأصل البركة الزيادة وثبوت الخير والإمتاع بـه، والمراد ببركة الطعـام والله أعلم ما يحصل به التغذية وتسـلم عاقبتة من أذى ويقوي على طاعة الله تعالى وغير ذلك»[2].

وفي قولـه ﷺ: «**اللهـم بـارك لهـم في مكيالهم وبـارك لهم في صاعهـم وبارك لهـم في مدهم**»[3] قال القـاضي البركة هنا بمعنى

(١) لسان العرب ١٠/ ٣٩٦، القاموس المحيط ١/ ١٢٠٤، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/ ١٣٤، ١٣/ ٥، الكشاف للزمخشري ١/ ٨٥٣.
(٢) شرح مسلم ١٣/ ٢٠٦.
(٣) الموطأ ٢/ ٨٨٤، البخاري ٢٠٢٣، مسلم ١٣٦٨.

النمـو والزيـادة وتكون بمعنى الثبات واللـزوم قال فقيل يحتمل أن تكون هذه البركة دينية وهي ما تتعلق بهذه المقادير من حقوق الله تعـالى في الزكاة والكفارات فتكون بمعنـى الثبات والبقاء لها كبقـاء الحكم بها ببقاء الشريعة وثباتهـا، ويحتمل أن تكون دنيوية من تكثير الكيل والقدر بهذه الأكيال حتى يكفي منه ما لا يكفي مـن غـيره في غـير المدينـة، أو ترجـع البركـة إلى التـصرف بها في التجـارة وأرباحهـا والى كثرة ما يكال بها مـن غلاتها وثمارها، أو تكون الزيادة فيما يكال بها لاتسـاع عيشـهم وكثرته بعد ضيقه لما فتح الله عليهم ووسـع من فضله لهـم وملكهم من بلاد الخصب والريـف بالشـام والعـراق ومصر وغيرهـا حتى كثـر الحمل إلى المدينة واتسـع عيشـهم حتى صارت هذه البركة في الكيل نفسـه فزاد مدهم وصار هاشميا مثل مد النبى ﷺ مرتين أو مرة ونصفا وفي هـذا كلـه ظهور إجابـة دعوتـه ﷺ وقبولها. هـذا آخر كلام القـاضي والظاهر من هذا كله أن البركة في نفس المكيل في المدينة بحيث يكفي المد فيها لمن لا يكفيه في غيرها والله أعلم»[1].

(١) شرح مسلم للنووي ٩/ ١٤٢.

وفي شرح منتهى الإرادات: «البركة الزيادة أو حلول الخير الإلهي في الشيء»[1].

وقد بين الإمام الأوزاعي أن البركة حينما ينتزعها الله عزَّ وجلَّ يعد ذلك حرمانا وعقوبة، فقال: «إذا أراد الله أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه الأغاليط»[2].

فالبركة هي الزيادة التي تنتجها الطاعة لتكون ثمرة لها، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3] وقال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[4].

يقول القرطبي: «فجعل تعالى التقى من أسباب الرزق كما في هذه الآيات ووعد بالمزيد لمن شكر فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾»[5].

---

(١) البهوتي ١/ ٢٣٥.

(٢) الموافقات للشاطبي ٤/ ٣١٧.

(٣) سورة الأعراف الآية ٩٦.

(٤) سورة الجن الآية ١٦.

(٥) سورة إبراهيم الآية ٧، وانظر: الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢٢٧.

وكما في قوله تعالى مخبرا عن نوح إذ قال لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[1].

وعن هود: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[2] «فوعدهم المطر والخصب»[3].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[4].

قال سعيد بن المسيب وعطاء بن أبي رباح والضحاك وقتادة ومقاتل وعطية وعبيد بن عمير والحسن: «كان والله أصحاب النبي ﷺ سامعين مطيعين ففتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر والمقوقس والنجاشي»[5].

والمستقرئ للقرآن الكريم يجد أن لفظ البركة حين تأتي بمعنى العطاء الكثير الذي يتجاوز حد العد والحساب إنما تأتي بصيغة الجمع الذي يدل على الزيادة والكثرة.

---

(١) سورة نوح الآية ١٠ - ١١.
(٢) سورة هود الآية ٥٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧/ ٢٢٥.
(٤) سورة المائدة الآية ٦٦.
(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٩/ ١٩.

فقد وردت في ثلاثة مواضع، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[1].

وقال: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

وقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[3].

ولأن البركة بمعنى الرفعة والعلو وصف بيت الله بها فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[4].

ووصف كتابه بأنه مبارك فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[5].

---

(١) سورة الأعراف الآية ٩٦.
(٢) سورة هود الآية ٤٨.
(٣) سورة هود الآية ٧٣.
(٤) سورة آل عمران الآية ٩٦.
(٥) سورة الأنعام الآية ٩٢.

وقوله: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾[1].

ووصف عيسى نفسه فقال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾[2].

وقال: ﴿ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾[3].

ووجه نبيه أن ينزله منزلا موصوفا بالبركة فقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾[4].

ووصف شجرة الزيتون تمد الكوكب الدري بالطاقة بأنها مباركة فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[5].

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٥٠.

(٢) سورة مريم الآية ٣١.

(٣) سورة الصافات الآية ١١٣.

(٤) سورة المؤمنون الآية ٢٩.

(٥) سورة النور الآية ٣٥.

ووصف أراضي وأماكن مقدسة وقرى بالبركة فقال: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾[1].

وقال: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2]. وقوله: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾[3]. وقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ﴾[4]. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾[5].

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٣٧.

(٢) سورة الإسراء الآية ١.

(٣) سورة الأنبياء الآية ٧١.

(٤) سورة الأنبياء الآية ٨١.

(٥) سورة سبأ الآية ١٨.

و في السنة النبوية، كثيرا ما ترد بصيغة التضعيف والتثنية أيضا، وتلك دلالة على الزيادة والنماء.

قال رسول الله ﷺ: «**اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما بمكة من البركة**»[1]. وقال: «**اللهم بارك لنا في مدينتنا، اللهم بارك لنا في صاعنا، اللهم اجعل لنا في مدنا، اللهم بارك لنا في صاعنا، اللهم بارك لنا في مدنا، اللهم بارك لنا في مدينتنا، اللهم اجعل مع البركة بركتين**»[2].

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا واجعل مع البركة بركتين**»[3].

عن عائشة تقول كان رسول الله إذا أتي بلبن قال: «**بركة أو بركتان**»[4].

وفي التحيات «**السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته**»[5].

---

(١) مسلم ١٣٦٩.
(٢) مسلم ١٣٧٤.
(٣) مسلم ١٣٧٤ .
(٤) ابن ماجة ٢/ ١١٠٣.
(٥) البخاري ٥٩١٠، مسلم ٤٠٢.

وعـن أبي هريرة قال قال رسـول الله ﷺ: «**بينـما أيوب عليه السـلام يغتسـل عريانا خر عليـه جراد من ذهـب فجعل يحثي في ثوبـه قـال: فناداه ربه عز وجل يا أيـوب ألم أكن أغنيتك؟ قال بلى يا رب ولكن لا غنى بي عن بركاتك**»[1].

وعن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة: «**ائتيني بزوجك وابنيه فجاءت بهم فألقى رسول الله ﷺ كساء فدكيا ثم وضع يده عليهـم ثم قال: اللهـم إن هؤلاء آل محمـد ﷺ فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد فإنك حميد مجيد**» قالت أم سلمة: فرفعت الكساء لأدخل معهم فجبذه من يدي وقال: إنك على خير»[2].

وقـال: «**اللهم ابسـط علينـا من بركاتـك ورحمتك وفضلك ورزقك**»[3].

إن البركـة تحل في حياتنا يـوم أن يلتزم المرء بأمر الله، ويكون شعاره دائماً تقوى الله حيث ما حل وارتحل.

---

(١) النسائي ١/ ٢٠٠.
(٢) المعجم الكبير ٣/ ٥٣.
(٣) النسائي الكبرى ٦/ ١٥٦.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[1].

قيل لأحد الصالحين: إنّ الأسعار قد ارتفعت، قال: أنزلوها بالتقوى.

ولما كان الاستثمار عبادة وطاعة يتقرب بها إلى الله عزوجل وهو الوسيلة للاستهلاك فقد بين رسول الله ﷺ الأوقات التي يتضاعف فيها الإنتاج وينشط فيها العامل فيؤدي جهدا استثنائيا، فهي محط البركة وظرفها المناسب قال ﷺ: «**باكروا الغدو في طلب الرزق فإن الغدو بركة ونجاح**»[2].

وقال: «**اللهم بارك لأمتي في بكورها**»[3].

---

(١) سورة الأعراف الآية ٩٦.

(٢) الترغيب والترهيب ٢/ ٣٣٦ وقال: رواه البزار والطبراني في الأوسط.

(٣) أحمد ١/ ١٥٣، أبو داود ٢/ ٤١، الترمذي ٣/ ٥١٧، ابن حبان ١١/ ٦٢، ابن ماجة ٢/ ٧٥٢.

فالالتزام بتوجيهات رسول الله ﷺ إنما تمثل تقوى الله، لتتكون حساسية في القلب تجاه أمر الله، وشفافية في الضمير تجاه ما نهى عنه وزجر، وكلما أنزلق القلب أو زلت القدم في الخطأ والعصيان لم يكن ذلك سببا لمحق البركة ما دام المسلم يسارع إلى التوبة والإنابة والاستغفار، فمن لزم الاستغفار فتح الله عليه أبواب الرزق والبركة، وفرّج همه، وأزال كربته ورزقه من حيث لا يحتسب.

قال الله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[1].

ولكن الإصرار على الخطأ، والوقوع في مستنقع الفواحش، واللعب في أرباض الرذائل، هو الذي يردي إلى الهلاك كما قال الشاعر[2]:

---

(١) سورة نوح الآية ١٠ -١٢.

(٢) مجمع الحكم والأمثال لأبي الفضل الميداني.

إن كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم

وحافظ عليها بتقوى الإله فإن الإله سريع النقم

فالمعاصي تضيع على الإنسان حياته الحقيقية التي يجد مغبتها يوم يقول ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾[1].

وعقوبتها أنها تمحق بركة العمر وبركة الرزق وبركة العلم وبركة العمل وبركة الطاعة وبالجملة أنها تمحق بركة الدين والدنيا، فلاتجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممن عصى الله، وما محيت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا * لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾[3].

قال عليه الصلاة والسلام: «**إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**»[4].

---

(١) سورة الفجر الآية ٢٤.

(٢) سورة الأعراف الآية ٩٦.

(٣) سورة الجن الآية ١٦.

(٤) أحمد ٥/ ٢٨٠، ابن حبان ٣/ ١٥٣، ابن ماجة ٢/ ١٣٣٤، المعجم الكبير للطبراني ٢/ ١٠٠.

وقال أيضا: «**إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصي الله فإنه لا ينال ما عنده إلا بطاعته**»[1].

وفي الأثر إن الرب تبارك وتعالى قال: «**إذا رضيت باركت وليس لبركتي نهاية، وإني إذا غضبت لعنت ولعنتي تدرك السابع من الولد**»[2].

إن عمر العبد هو مدة حياته ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره، فإن حياة الانسان بحياة قلبه وروحه، ولاحياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره ومحبته وعبادته وحده والإنابة إليه والطمأنينة بذكره والأنس بقربه، ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله ولو تعوض عنها بما تعوض به الدنيا، بل ليست لدنيا بأجمعها عوض عن هذه الحياة، فمن كل شيء يفوت العبد عوض وإذا

---

(١) مصنف عبد الرزاق ١١/ ١٢٥، ابن أبي شيبة ٧/ ٧٩، مسند الشافعي ١/ ٢٣٣.

(٢) مصنف عبد الرزاق ٧/ ١٨٤، الزهد لابن حنبل ١/ ٥٢، حلية الأولياء ٤/ ٤١.

فاتـه الله لم يعوض عنه شيء البتة، وكيف يعوض الفقير والعاجز عن الغني القادر الذي له ملك السموات والأرض؟ وإنما كانت معصية الله سـببا لمحق بركة الرزق والأجل لأن الشـيطان موكل بهـا وبأصحابهـا، وكل شيء يتصـل به الشـيطان ويقارنـه فبركته ممحوقـة، ولهـذا شرع ذكر اسـم الله تعـالى عنـد الأكل والشرب واللبـس والركـوب والجـماع، لما في مقارنة اسـم الله مـن البركة، وذكـر اسـمه يطرد الشـيطان فتحصـل البركة ولا معـارض لها، وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة، فإن الرب هو الذي يبارك وحـده، والبركـة كلها منـه، وكل ما نسـب إليه مبـارك، فكلامه مبـارك، ورسـوله مبـارك، وعبـده المؤمـن النافع لخلقـه مبارك، وبيته الحرام مبارك، وكنانته من أرضه وهى الشـام أرض البركة، وصفها بالبركة في ست آيات من كتابه، فلا مبارك إلا هو وحده، ولا مبارك إلا ما نسب إليه في محبته وألوهيته ورضاه.

فكل عمـل أو قول ابتعد عن الطاعة فقد نزعت بركته، لأنه انحرف عن مجراه الصحيح المنضبط، فيصيبه الشـطط وينتابه كل أسباب الانحراف والميل.

فالبركة تتركز بكل ما يدرك الإنسان فيه أنه قربة إلى ربه، وكلما اتصل به وارتبط كان أشد وثوقا ورسوخا، وكان منه بسبيل، وقد غشيته سكينة الرحمة وأغدقت البركة سلسبيلها بالخير. ومن هنا كانت لعنة إبليس نكدا عليه، فكان أبعد خلق الله من رحمة الله عز وجل، فكل ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربه منه واتصاله به.

ومن هنا كان للمعاصي أعظم تأثير في محق بركة العمر والرزق والعلم والعمل، فكل وقت عصيت الله فيه، أو مال عصيت الله به، أو بدن أو جاه أو علم أو عمل، فهو عليك ليس لك.

فليس للإنسان من عمره وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله إلا ما أطاع الله به.

ولهذا فإن من الناس من يعيش في هذه الدار مائة سنة أو نحوها ويبدو وكأن عمره لايبلغ عشرين سنة أو نحوها، كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويحيا عمرا

طويـلا ولكنه ما يلبـث أن يزول وكأنه بلا عمـر أو مال، وهكذا الجـاه والعلم، قال ﷺ: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله عز وجل وما والاه و عالم أو متعلم**»[1].

هذا هو الذي فيه البركة خاصة والله المستعان[2].

فمـن أراد أن يكون كالغيـث في كبد السـماء هطوله.. فعليه أن يسـقي النـاس ماء الخير والمعـروف، ويزرع شـجرة المحبة في قلوبهـم، ويقطف ثمار المودة والمحبة لقريبهم وبعيدهم، فإذا رأى منكـراً تلطف مع صاحب المعصية بالكلمة الطيبة.. والابتسـامة الهادفة.. وإذا رأى أشواك الكراهية تزرع في أرض العطاء، أزالها بحكمتـه وفطنته، وزرع مكانهـا أوراق التآلـف وأغصان الوفاء وأزهار الإخاء.

فبركة الرجل تنبض عندما يغمر قلبه حب الخير، ونشر الخير والتعـاون على البر والخير، بهـذه الومضات الطيبة يكون مباركاً،

(١) الترمذي ٤/ ٥٦١، ابن ماجة ٢/ ١٣٧٧.
(٢) الجواب الكافي ١/ ٥٧.

أيـن مـا وقع نفـع، وحيث مـا حـل زرع، فمثله كمثل الشـمس المشرقة بالخيرات، والأرض المخضرة بالبركات، والريح المرسلة بالنفحات.

قال الله تعالى على لسان المسيح عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[1]، أي معلـماً للخـير، داعياً إلى الله، مذكراً بـه، مرغبـاً في طاعته، فهذا من بركة الرجـل، ومن خلا من هذا، فقد خلا من البركة، ومحقت بركة لقائه واجتماعه، بل محقت بركة مـن لقيه واجتمع به، لأنه مضيع للوقـت والمال، ومحرق للثياب كالجليس السوء الذي أخبر عنه حبيبنا ﷺ.

وما هذا النكد وهذا الشـقاء الذي تعيشه البشرية إلا لبعدها عن هذه الرسالة الخالدة.

لقد كانت بركاته ﷺ الحسية صورا معبرة ونموذجا يتراءى فيهـا الخـير وهي شـاهد عـلى عظـم الرسـالة والهـدى والدعوة إليـه: مـن تكثـيره الطعـام ،ونبع المـاء من بـين أصابعـه الشريفة

(١) سورة مريم الآية ٣١.

وإبرائـه المـرضى وبركته في إجابـة الله تعالى لدعائـه صلوات ربي وسلامه عليه[1].

إننا حـين نتلمس الواقع نجد بعض الناس، منهم من دخله الشـهري بسـيط لكن الله بـارك له في القليل، فـلا تجد المصاريف التـي يصرفها بلا فائدة ولا حسـبان، فقد رزقـه الله بابنة وحيدة، لكنهـا زهرة تفوح بالخيرات، وشـجرة أثمرت له أحفاداً هم قرة عين له، وتجد وقته معموراً بطاعة الله ونفع الناس، وكأن ساعات يومه أطول من ساعات وأيام الآخرين.

وتأمـل في حـال الآخريـن ممـن لا أثـر للبركة لديهـم، فهذا يملـك الملايـين لكنهـا تتعبـه وتشـقيه بالكـد والتعـب في النهار وبالسـهر والحساب في الليل، فبِالأمس دفع مبلغاً هائلاً في علاج ابنـه المريض.. وما زال يدفع، واليوم دفع نقوداً طائلة في إصلاح أعطال بيته وسياراته.. وما زال يدفع، وغداً تنتظره الديون المثقلة

(١) أحمد ٣/ ٤١٨، ٦/ ٤٣٧، المعجم الكبير للطبراني ٨/ ٣٣٨، ١٢/ ٨٧، ٢٢/ ١٥١، والأوسط ٤/ ٢٨٥، البيهقي الكبرى ٧/ ٧/ ٢٧٤.

على كاهله قد دفع بعضها.. وما زال يدفع، فتتعجب عندما ترى الخوف مرسوماً على وجهه، يخاف من قدوم زائر أو دقة طالب، كثير المرض، فقير النفس، شقياً بماله، فلا هو سعيد بأملاكه، ولا يدري أين نهايته، له أولاد لكنهم ينتظرون بفارغ الصبر توزيع التركة والميراث، يجمعهم دعاء واحد: اللهم أرحنا منه. ووراء كل ذلك، البنوك ومديوناتها التي تكبل الأشقياء بالدين، والربا يغرقه بالوحل والهم والحزن.

لقد كان رسولنا ﷺ يدعو بالبركة في الأمور كلها، فالإنسان وهو يسير في هذه الدنيا يطمع أن يزاد في وقته، وعمره، وماله، وأبنائه، لأنه يعلم أن البركة إذا حلت، حلت السعادة في القلب، والسكينة في النفس، والراحة في الجسد، والانشراح في الصدر، ومن فتح كتب الأولين وتأمل في حياتهم يجد البركة ظاهرة في أحوالهم . فتجد بعض الناس علمه قليل ولكن الله جعل البركة في هذا القليل، فنفع العباد وأخرج بفضل الله على يده كثير الناس من وحل الضلالة إلى رياض الجنة، وضده من لديه علم كثير لكن لا أثر لنفع الناس، والبركة إذا أنزلها الله عز وجل تعم

كل شيء: في الرزق، والوظيفة، والسيارة، والمنزل، والزوجة، والأبناء والوقت، والدعوة، والجسد، والعقل، والجوارح، ومن هنا كانت البركة من أهم ما يطلب في حياة الناس. ولكن سؤال يطرح نفسه، كيف نستجلب البركة؟ إن تقوى الله عز وجل مفتاح كل خير، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾[1]، أي من جهة لا تخطر على باله. وعرف العلماء التقوى: بأن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله. وقد قيل: ما احتاج تقي قط، قيل لرجل من الفقهاء: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾، فقال الفقيه: والله، إنه ليجعل لنا المخرج، وما بلغنا من التقوى ما هو أهله، وإنه ليرزقنا وما اتقيناه، وإنا لنرجو الثالثة: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾[2].

---

(١) سورة الطلاق الآية ٢، ٣.

(٢) سورة الطلاق الآية ٥.

والأعمال الصالحة مجلبة للخير والبركة كالدعاء؛ فقد كان النبي يطلب البركة في أمور كثيرة، فعلمنا أن ندعو للمتزوج فنقول: «**بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير**»[1].

والدعاء لمن أطعمنا: «**اللهم بارك لهم فيما رزقتهم، واغفر لهم، وارحمهم**»[2].

وقد دعا رسول الله ﷺ لأنس بالبركة فقال: «**اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته**»[3].

قال أنس: «فو الله إن مالي لكثير وإن ولدي وولد ولدي ليتعادون على نحو المائة اليوم»[4]. وفي رواية «فلقد دفنت من صلبي سوى ولد ولدي خمسا وعشرين ومائة وإن أرضي لتثمر في السنة مرتين وما في البلد شيء يثمر مرتين غيرها»[5].

---

(١) أحمد ٢/ ٣٨١، أبو داود ١/ ٦٤٧، الترمذي ٣/ ٤٠٠، ابن حبان ٩/ ٣٥٩، ابن ماجة ١/ ٢٣٤.

(٢) أحمد ٤/ ١٨٨، أبو داود ٢/ ٣٦٤، ابن حبان ١٢/ ١٠٩، الترمذي ٥/ ٥٦٨.

(٣) البخاري ٥٩٧٥، مسلم ٢٤٨٠.

(٤) مسلم ٢٤٨١، ابن حبان ١٦/ ١٤٢.

(٥) المعجم الكبير للطبراني ١/ ٢٤٨.

وفي مسند أحمد قال: «فأخبرتني ابنتي إني قد دفنت من صلبي بضعا وتسعين وما أصبح في الأنصار رجل أكثر مني مالا ثم قال أنس يا ثابت ما أملك صفراء ولا بيضاء إلا خاتمي»[1].

وحفاظا على البركة وتمكنها في أموالنا وحياتنا ونفوسنا حذرنا الإسلام من الشح والشره والكذب والغش والخداع ونحو ذلك في أخذ المال:

قال رسول الله ﷺ لحكيم بن حزام رضي الله عنه: «**يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع**»[2].

ولذلك كان الصدق في المعاملة من بيع وشراء سببا في جلب البركة: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما»[3].

---

(١) أحمد ٣/ ٢٤٨.

(٢) البخاري ١٤٠٣.

(٣) البخاري ٢٠٠٤، مسلم ١٥٣٢.

فعلى المسلم أن يتوكل على الله في أمور حياته وعندما يسعى في طلب رزقه فليتوكل على الله فهو حسبه، قال ﷺ: «**لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً**»[1].

ولقد كان من هدي رسولنا ﷺ أن يعلم أصحابه الاستخارة، لأنها تجلب البركة وتنعش التوكل واليقين في قلب المؤمن وتوثق الصلة بالله عز وجل.

قال ﷺ: «**إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني، ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري أو قال: عاجل أمري، وآجله فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني، ومعاشي وعاقبة أمري،**

---

(١) أحمد ١/ ٣٠، ابن حبان ٢/ ٥٠٩، المستدرك ٤/ ٣٥٤.

أو قال في عاجل أمري، وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم أرضني به»[1].

وعلينا دائما أن نشكر الله تعالى على هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى، والشكر والحمد لله على عطائه ونعمه؛ ﴿وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[2]، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[3].

ولقد كانت الأرض أكثر بَرَكَةً مما هي عليه اليوم من حيث الغلّة والمحصول، وكثيراً ما نسمع كبار السنّ وهم يقولون: «كانت الدنيا أكثر بَرَكة من اليوم، وأكثر مطراً وخصباً، أما اليوم - ويصفّقون كفاً بكفّ - فقد ضاعت البركة وقَلَّت الأمطار وكثر الجدب والمحل». والسبب في ذلك يعود إلى ابتعاد الناس عن منهج الله الذي يعلم ما يصلح العباد.

وحين نتأمل آية الإنفاق كوسيلة من الوسائل التي تجلب البركة ونتمعن كل كلمة في دلالتها على عمق المعنى الذي تؤديه

---

(١) البخاري ١١٠٩.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٤٤.

(٣) سورة إبراهيم الآية ٧.

والدلالـة التـي توحي بها فإننـا نفهم معنى البركة وكأنها مشـهد يتحـرك أمامنـا وصورة نتلمـس إيحاءها عـلى أرض الواقع، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

فمـن الطبيعـي أن تنبت الحبة الواحدة سـنبلة واحدة ولكن البركـة في الإنفاق جعلتها سـبع سـنابل، ومـن الطبيعي أيضا أن تكون في السنبلة عشرون حبة أو أكثر بقليل ولكن البركة جعلتها مائة. ولم تكتف الآية بتلك الزيادة ولكن القرآن جعلها تتضاعف أضعافـا كثيرة، ومع كل هذا تبقى الزيادة قليلة ما دامت معدودة بالمائة ومضاعفاتها، فقد قال علماء اللغة: أن كل معدود قليل مهما كثـر لأن له حدودا، من أجل ذلك لم يكتف القرآن بذلك وصور البركـة للإنفـاق أنها لا حدود لهـا فهي زيادة مطلقـة غير مقيدة، ولذلك ختمت الآية بقوله: والله واسع عليم، فتلك زيادة ليست

(١) سورة البقرة الآية ٢٦١.

لها مقدار معين لأن الباب الذي تخرج منه باب واسع لا يعرف مداه إلا الله وهو باب لا يغلق وليس له حدود، وهذا الباب هو الذي يمثل البركة في حساب الله عز وجل.

فإذا أردنا أن نفهم ألغاز الحياة بمفهوم القرآن ووحي النبوة، وأرقام الأيام بمقاييس إسلامية، فلنعش مع حبيبنا ﷺ، وهو يعلمنا بركة المال، فعندما ينفق المسلم ماله على الفقراء، يبارك الله تعالى في رزقه، فالمنفق يدعو له الملك كل يوم بخلاف الممسك.

وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما :اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً**»[1].

كما أن صاحب الصدقة يبارك له في ماله كما أخبر النبي ﷺ عن ذلك بقوله: «**ما نقصت صدقة من مال**»[2].

---

(١) البخاري ١٣٧٤، مسلم ١٠١٠.

(٢) الموطأ ٢/ ١٠٠٠، مسلم ٢٥٨٨.

وأنـه لا يبقى لصاحب المال من مالـه إلا ما تصدق به كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾[1].

ولما سـأل النبـي ﷺ عائشـة رضي الله عنها عن الشـاة التي ذبحوهـا ما بقـى منها: قالت: ما بقى منهـا إلا كتفها. قال: «**بقي كلها غير كتفها**»[2].

وفي الحديث القدسي قال الله تبارك وتعالى: «**يا ابن آدم أنفق، أُنفق عليك**»[3].

وكما أن الإنفاق يجلب البركة في سعة الرزق فإن صلة الرحم كذلـك، بركـة في العمر وسـعة في الرزق قـال ﷺ: «**من سره أن يبسط له في رزقه و ينسأ له في أثره فليصل رحمه**»[4].

وفي روايـة: «**صنائع المعروف تقي مصارع السـوء والصدقة خفيّـاً تطفىء غضـب الرب وصلـة الرحم زيـادة في العمر وكل**

(١) سورة البقرة الآية ٢٧٢.
(٢) الترمـذي ٤/ ٦٤٤، ابـن أبي شـيبة ٢/ ٣٥٢، الترغيـب والترهيـب للمنذري ٢/ ٥.
(٣) البخاري ٥٠٣٧، مسلم ٩٩٣.
(٤) البخاري ١٩٦١، مسلم ٢٥٥٧.

معـروف صدقة وأهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة وأهـل المنكر في الدنيا أهل المنكر في الآخرة وأول من يدخل الجنة أهل المعروف»[1].

وفي رواية أخرى: «**صلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار**»[2].

يقـول النـووي: «ينسـأ أي يؤخـر، والأثر الأجـل لأنه تابع للحياة في أثرها، وبسـط الرزق توسيعه وكثرته وقيل البركة فيه، هذه الزيادة بالبركة في عمره والتوفيق للطاعات وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة وصيانتها عن الضياع في غير ذلك»[3].

وفي فتـح البـاري: «وحاصلـه أن صلـة الرحم تكون سـببا للتوفيـق للطاعة والصيانة عن المعصية فيبقى بعده الذكر الجميل فكأنه لم يمت ومن جملة ما يحصل له من التوفيق العلم الذي ينتفع به من بعده والصدقة الجارية عليه والخلف الصالح»[4].

---

(١) المعجم الأوسط ٦/ ١٦٣ والكبير ٨/ ٢٦١.
(٢) أحمد ٦/ ١٥٩.
(٣) شرح مسلم ١٦/ ١١٤.
(٤) فتح الباري ١٠/ ٤١٦.

والإنفاق المعتدل والتواصل مع الأقارب والأرحام استهلاك معتدل رشيد يؤدي إلى الزيادة في الرزق والبركة في العمر لا إلى نقصانه أو هلاكه، وهذا ما يدلل على فاعلية الاستهلاك الرشيد في تنمية المال وطرح البركة فيه وذلك فيما يخلفه من آثار إيجابية محمودة، وتلك طبيعة سنة الله عز وجل في كل عمل رشيد.

بركة الطعام:

ولما كان الاستهلاك المنضبط طاعة تجلب الخير وتزيد في رزق المسلم، محل للاستهلاك تظهر فيه آثاره المباشرة ولذلك علمنا الإسلام آداب الطعام وكيفية التعامل مع القصعة، لتحل البركة وينمو زاد المسلم ويعم الخير.

فالتسمية أول الآداب وقد علمها رسول الله ﷺ أصحابه وأدبهم بهذا الأدب الرفيع فعن عمر بن أبي سلمى قال :كنت غلاما في حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: «**يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك**». فما زالت تلك طعمتي بعد[1].

(١) البخاري ٥٠٦١، مسلم ٢٠٢٢.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يأكل طعاماً في ستّة نفر، فجاء أعرابيّ، فأكله بلقمتين، فقال رسول الله ﷺ: «**أمّا أنّه لو كان سمّى لكفاكم فإذا أكل أحدكم طعاما فليذكر اسم الله عليه فإن نسي في أوله فليقل باسم الله أوله وآخره**»[1].

والاجتماع على الطعام مودة وألفة وبركة:

قال أصحاب رسول الله ﷺ: يا رسول الله، إنّا نأكل ولا نشبع؟ قال: «**فلعلكم تفترقون**» قالوا نعم. قال: «**فاجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله عليه، يبارك لكم فيه**»[2].

يقول النووي: «والمراد ببركة الطعام والله أعلم ما يحصل به التغذية وتسلم عاقبتة من أذى ويقوي على طاعة الله تعالى وغير ذلك»[3].

---

(١) أحمد ٦/ ١٤٣، ابن حبان ١٢/ ١٣، ابن ماجة ٢/ ١٠٨٦.
(٢) أبو داود ٢/ ٣٧٣، المعجم الكبير ٢٢/ ١٣٩، البيهقي الكبرى ٥/ ٢٥٨.
(٣) شرح مسلم ١٣/ ٢٠٦.

وأما الأكل من جانب القصعة فأدب إسلامي رفيع يراعي الذوق الإنساني ويحقق نمطا راقيا من أنماط الاستهلاك في المحافظة على الطعام والإحساس بالآخرين في الفاضل منه:

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**البركة تنزل وسط الطعام فكلوا من حافتيه ولا تأكلوا من وسطه**»[1].

ومن الآداب أيضا لعق الأصابع والصحفة فإن فيه من الاقتصاد ما يدلل على عدم التفريط بشيء، بحيث لا تزدري نعمة الله عز وجل وإن كانت قليلة في أطراف الأصابع أو بقايا في الصحفة، وكذلك إزالة الأذى عن اللقمة إن وقعت، فإنه إن لم يستفد منها الإنسان فإنها غذاء للحيوان ينتفع منها ويستهلكها.

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه، حتى يحضره عند طعامه، فإذا سقطت من أحدكم اللقمة فليأخذها فليمط ما كان بها من أذى، ثم ليأكلها، ولا يدعها للشيطان، فإذا فرغ فليلعق أصابعه، فإنه لا يدري في أي طعامه تكون البركة**»[2].

---

(١) أحمد ١/ ٣٦٤، الترمذي ٤/ ٢٦٠، ابن حبان ١٢/ ٥٠، ابن ماجة ٢/ ٣٧٥.

(٢) مسلم ٢٠٣٣، عبد الرزاق ٢/ ٢٧٤، ابن أبي شيبة ١/ ٣٩٩.

يقـول النـووي: «معنـاه والله أعلم أن الطعـام الذى يحضره الإنسـان فيه بركـة ولايدري أن تلك البركة فيـما أكله أو فيما بقي على أصابعه أو فى ما بقي فى أسـفل القصعة أو في اللقمة الساقطة فينبغـى أن يحافظ عـلى هذا كلـه لتحصل البركـة، وأصل البركة الزيادة وثبوت الخـير والإمتاع به والمراد هنا والله أعلم ما يحصل بـه التغذيـة وتسـلم عاقبته مـن أذى ويقوى على طاعـة الله تعالى وغير ذلك»[1].

وهنـاك بعض الأطعمة مباركة كما ذكرت في هدي المصطفى ﷺ، كماء زمزم خير ماء على وجه الأرض قال ﷺ: «**إنها مباركة، إنها طعام طُعم وشفاء سقم**»[2].

وزيت الزيتون وشجرة الزيتون قال تعالى: ﴿**يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ**﴾[3].

---

(١) شرح مسلم ١٣/ ٢٠٦.

(٢) أحمـد ٥/ ١٧٤، ابـن حبـان ١٦/ ٧٧، المعجـم الكبـير ٢/ ١٥٣، عبد الرزاق ٥/ ١١٥، البيهقي الكبرى ٥/ ١٤٧.

(٣) سورة النور الآية ٣٥.

وكذلك تمر النخلة، قال ﷺ: «**إن من الشجر بركته كبركة المسلم**»[1] والمراد بها النخلة.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «أن أباه قتل يوم أحد شهيدا وعليه دين فاشتد الغرماء في حقوقهم فأتيت النبي ﷺ فسألهم أن يقبلوا تمر حائطي ويحللوا أبي فأبوا فلم يعطهم النبي ﷺ حائطي وقال: «**سنغدو عليك**». فغدا علينا حين أصبح فطاف في النخل ودعا في ثمرها بالبركة فجددتها فقضيتهم وبقي لنا من تمرها»[2].

وقال جابر: «اشتد الغرماء في حقوقهم في دين أبي فسألهم النبي ﷺ أن يقبلوا ثمر حائطي فأبوا فلم يعطهم الحائط ولم يكسره لهم قال: «**سأغدو عليك غدا**». فغدا علينا حين أصبح فدعا في ثمرها بالبركة فقضيتهم»[3].

---

(١) البخاري ٥١٢٩.

(٢) البخاري ٢٢٦٥، ٢٤٦١.

(٣) البخاري ٢/ ٨٤٦.

وقال ﷺ: «**إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر،فإنه بركة**»[1].

كما جعل الله في طعام السحور بركة؛ «**تسحروا فإن في السحور بركة**»[2].

قال وفي الخيل بركة، قال رسول الله ﷺ: «**البركة في نواصي الخيل**»[3].

وأخيرا فالبركة سعة في الطعام القليل، وزيادة في الماء الزلال، وصحة في أجساد الرجال، ومحبة في قلوب الناس، وبيوت يحفها الاستقرار والأمان، وذرية بررة مصلحون، وأيام غانمة بالحكم والدروس، فلا تقاس كثرة النعم وفيض الأيام وقوة الأجسام بمقاييس البشر القاصرة، لأن البركة هبة إلهية اختص الله بها بعض خلقه.

---

(١) أحمد، الترمذي ٣/ ٤٦، ابن حبان ٨/ ٢٨١، المعجم الكبير للطبراني ٦/ ٢٧٢.

(٢) البخاري ١٨٢٣، مسلم ١٠٩٥.

(٣) البخاري ٢٦٩٦، مسلم ١٨٧١.

والبركة لا تلمس بالأيادي، ولا تُوزن بالموازين، ولا تقاس بالمقاييس، ولا يراها الإنسان بعينه، ولا يتنسمها بأنفه. وكلما كانت أعمالنا تحفها التوبة والاستغفار والتقوى والتوكل على الله تعالى، كانت الأيام المنتظرة روضة خضراء تتلألأ بالخيرات والبركات.

***

الخاتمة

من خلال ما تقدم نخلص إلى الآتي:

١ - الاستهلاك هو التمتع بالطيبات وهو الهدف النهائي للعملية الاقتصادية وهو يحتل أهمية كبيرة في النظرية الاقتصادية لكونه يمثل شكلاً من أشكال الطلب الكلي، وإن الطلب الكلي هو المحدد لحجم الاستخدام والإنتاج .

والطلب الاستهلاكي هو دالة لحجم الدخل، ويعد أهم المساهمات النظرية التي جاء بها كينز في الثلاثينيات من القرن الماضي، ولأهميته في دفع الفعالية الاقتصادية نجد كينز يؤكد إعادة التوزيع لصالح الطبقات الفقيرة ليزداد الطلب الكلي ويرتفع مستوى النشاط الاقتصادي.

٢ - إن الاستهلاك في الاقتصاد الإسلامي محكوم بضوابط معينة كتحريم الإسراف، وهو استعمال الشيء فوق الحاجة المشروعة وتحريم التبذير، الذي هو تجاوز الحد المعقول في الإنفاق والجهل بمواقع الحقوق[1].

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي ٢٧٦ .

٤- إن مستوى الاستهلاك في الاقتصاد الإسلامي يتميز بالوسطية التي تميز طبيعة هذا الدين عموماً، الأمر الذي يؤدي إلى مستوى من الاستهلاك المتوازن مع مستوى الدخل والتوزيع لعموم أفراد المجتمع، مما يعكس آثاره الإيجابية على قوة العمل في تحقيق الحاجات الأساسية التي يتألف منها حد الكفاية في ضوء ما يقره الاقتصاد الإسلامي حتى تتوفر فرص المساهمة الإيجابية في زيادة الإنتاج والإنتاجية .

٥- تتم معالجة الاستهلاك الترفي كما أكد الاقتصاديون والاجتماعيون عن طريق:

١- زيادة الوعي الاقتصادي: حيث يتضح للأفراد الآثار السيئة للاستهلاك الترفي، ليس عن طريق توضيح مضار وسلبيات الاستهلاك الترفي وحسب.. وإنما عن طريق بيان حسنات استثمار الثروات أيضا، بما يرجع بالخير على الفرد والمجتمع.

٢- التخلص من القيم الاستهلاكية السلبية، وتهذيب إشباع الحاجات والرغبات.

٣- تشجيع الأفراد على الادخار وفتح قنوات فعالة لاستثمار مدخراتهم.

٤- تقديم الكميات المطلوبة والاهتمام بالجودة والنوعية.

٥- استحضار العامل الديني، الذي يؤكد على ضرورة ترشيد الاستهلاك، وينبذ الإسراف والترف بكل أشكاله.

٦- توجيه جزء من الثروة إلى عملية الإنتاج، بما يخدم حاضر الإنسان ومستقبله.

وللتعامل مع أطفالنا علينا أن نعترف أن زمن الطفرة انتهى وزمانهم مختلف عن زمننا، وقد قيل: «لا تكرهوا أولادكم على آثاركم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم»[1].

ولا يمكننا إهمال ظاهرة الاستهلاك الترفي لدى الأطفال، فهم جيل المستقبل، ومن الجناية عليهم ألا نعلمهم معنى الترشيد الاستهلاكي.

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ٢/ ٨٢، إغاثة اللهفان ٢/ ٢٦٥.

إن نمط السلوك الاستهلاكي يتأصل لدى الطفل منذ الصغر، وعملية التنشئة الاستهلاكية هي عملية مستمرة يتعلم الطفل من خلالها المعارف والمهارات والاتجاهات التي تتناسب مع حصوله على المنتجات.

ومما لاشك فيه أن دور الأسرة مهم فالطفل يتعلم السلوك الاستهلاكي داخل أروقتها قبل أن يخرج إلى العالم الخارجي. وتستطيع الأسرة الواعية أن تدرب الطفل على التعامل مع المواقف الاستهلاكية كعملية الشراء ومفهوم الميزانية مثلاً لكن ذلك يحدث نادراً لدى أسرنا فقد طالت حمى الاستهلاك الترفي أصحاب الدخل المحدود في مجاراة النمط العام. وهناك عدد من العوامل يشير الخبراء إلى تأثيرها في عملية اكتساب الطفل مهارات الاستهلاك وهي:

١ - التقليد والمحاكاة وأهمية وجود القدوة السليمة وبخاصة «سلوك الأم الاستهلاكي» في فترة الطفولة إذ يساعد على سرعة التعلم وغرس العادات والقيم والاتجاهات الصحيحة نحو الاستهلاك والتركيز على المفاهيم الخاصة بترشيده.

٢- مستوى الدخل النقدي.

٣- وسائل الإعلام وفنون الدعاية والإعلام.

٤- تعليم الأم للطفل، وتفاعل الأمهات مع الأطفال في أثناء اتخاذ القرارات الاستهلاكية.

٥- عامل الدين.

٦- الموقع الجغرافي والبيئة الاجتماعية.

٧- العوامل النفسية.

٨- العوامل الاقتصادية.. إن الطبقة الاجتماعية تلعب دوراً أكبر من جميع العوامل في تحديد نمط الإنفاق الاستهلاكي والتعامل بالنقود.

٩- تدريب الأسرة للطفل للمشاركة في عمليات الاختيار والشراء، مع تعويد الطفل على الاقتصاد والتوفير وتقليل الفاقد في كل نواحي الحياة الاستهلاكية.

والسـؤال هل تعرف الأسرة المسلمة دورها ومسؤوليتها في تنمية شخصية المستهلك الصغير الذي سيغدو يوماً كبيراً؟ عسى أن تكـون مهمتهـا في التنشـئة أكبر من الاسـتهلاك غـير المعتدل ولتسعى للبلوغ به إلى مراتب الرقي المنشودة.

***

المصادر

- إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي ٥٠٥هـ دار المعرفة - بيروت - لبنان.

- أعلام الاقتصاد الإسلامي للدكتور شوقي دنيا - مكتبة الخريجي ـ الرياض.

- الاستهلاك وضوابطه في الاقتصاد الإسلامي للدكتور عبدالستار إبراهيم رحيم الهيتي (رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية العلوم الإسلامية - جامعة بغداد ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).

- الأسعار وتخصيص الموارد في الإسلام الدكتور عبد الجبار حمد عبيد السبهاني- دار البحوث والدراسات الإسلامية دبي - الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ -٢٠٠٥م.

- الإسلام وخطط التوازن الاقتصادي بين أفراد المجتمع - محمد شوقي الفنجري (بحث منشور في مجلة منبر الإسلام عدد ٢، ١٣٩٣هـ).

- الإسلام وعدالة التوزيع - محمد شوقي الفنجري - (بحث منشور في ندوة الاقتصاد الإسلامي) - معهد البحوث والدراسات العربية - بغداد ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- الاقتصاد الإسلامي - دراسة تحليلية للدكتور محمد منذر قحف - دار القلم - الطبعة الأولى - الكويت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

- الاكتساب في الرزق المستطاب - محمد بن الحسن الشيباني - مطبعة الأنوار - الطبعة الأولى ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م.

- البرهان في أصول الفقه لإمام الحرمين الجويني - دار الوفاء - الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ ١٩٩٢م المنصورة - مصر.

- الجامع الصغير للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي - دار الكتب العلمية - الطبعة الرابعة.

- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي - دار الفكر - الطبعة الثانية ١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م.

- السوق الإسلامية المشتركة للدكتور محمود محمد بابللي - الطبعة الأولى ١٩٧٥م - دار الكتاب اللبناني - بيروت.

- الغياثي غياث الأمم في التياث الظلم لإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني، تحقيق: الدكتور عبد العظيم الديب - الطبعة الأولى - قطر ١٤٠٠هـ.

- المال والحكم في الإسلام - عبد القادر عودة - الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م دار النذير - بغداد.

- المبسوط لشمس الدين السرخسي - دار المعرفة للطباعة والنشر - الطبعة الثالثة - بيروت لبنان.

- المستدرك على الصحيحين للحاكم محمد بن عبدالله أبي عبدالله النيسابوري - دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة - الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

- المستصفى للإمام أبي حامد الغزالي - المطبعة الأميرية - الطبعة الأولى بولاق - مصر ١٣٢٢هـ.

- المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل للإمام موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المتوفى سنة ٣٤٤هـ - دار الفكر - الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

- الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي المتوفى سنة ٧٩٠هـ دار المعرفة - بيروت - لبنان.

- النظام الاقتصادي الإسلامي محمد عبد المنعم عبد القادر - دار المجمع العلمي - جدة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ص١٥٧.

- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للإمام علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني الحنفي الملقب بملك العلماء المتوفى سنة ٥٨٧هـ - دار الكتب العلمية - الطبعة الثانية - بيروت ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- تاريخ الأمم والملوك محمد بن جرير الطبري - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

- جامع البيان عن تأويل القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ - دار الفكر ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

- جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة أحمد زكي صفوت - المكتبة العلمية - بيروت.

- سنن ابن ماجه - محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني - دار الفكر - بيروت.

- سنن أبي داود - سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي - دار الفكر.

- سنن البيهقي الكبرى - أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي - مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

- سنن الترمذي: الجامع الصحيح - محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

- سنن الدارقطني لعلي بن عمر الدارقطني - دار المحاسن للطباعة - القاهرة.

- سنن النسائي الكبرى - أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي - دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

- شعب الإيمان - أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان - محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

- صحيح ابن خزيمة محمد بن إسحاق بن خزيمة أبي بكر السلمي النيسابوري - المكتب الإسلامي - بيروت، ١٣٩٠هـ - ١٩٩٧م.

- صحيح البخاري: الجامع الصحيح المختصر - محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي - دار ابن كثير، اليمامة - بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

- صحيح مسلم بن الحجاج أبي الحسين القشيري النيسابوري - دار إحياء التراث العربي - بيروت - تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

- فيض القدير شرح الجامع الصغير - عبد الرؤوف المناوي المكتبة التجارية الكبرى - الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ مصر.

- قواعد الأحكام في مصالح الأنام للإمام أبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي - دار الجيل - الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

- لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري - دار صادر ودار بيروت ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م.

- مسند الإمام أحمد بن حنبل أبي عبد الله الشيباني - مؤسسة قرطبة - القاهرة.

- مقدمة ابن خلدون - دار الكشاف - بيروت .

- مناقب عمر بن الخطاب لأبي الفرج علي بن الجارود النيسابوري - مطبعة الفجالة الجديدة - القاهرة ١٣٨٢هـ.

- نظرية الاستخلاف في الفكر الإسلامي وأثرها في بناء الشخصية - الدكتور عبد اللطيف هميم ١١ وما بعدها - الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م مطبعة النواعير - العراق - الرمادي.

- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار للشيخ محمد بن علي بن محمد الشوكاني - دار الحديث - القاهرة .

فهرس الموضوعات

افتتاحية	٥
مقدمة	٧
تمهيد: ترشيد الاستهلاك وحاجة الأمة إليه	١٧
المبحث الأول: المهمة الاستخلافية ودورها في توجيه الاستهلاك	٣١
المبحث الثاني: ضوابط الاستهلاك	٤١
المبحث الثالث: سمات المجتمع الإسلامي وأثرها في الاستهلاك	٥٣
١- ترك الأنانية	٥٣
٢- الالتزام بالتعاليم النبوية	٥٦
٣- الفهم العميق لمقاصد التشريع الإسلامي	٦٥
المبحث الرابع: الاستهلاك الرشيد وسيلة لجلب البركة	٧٥
الخاتمة	١١١
المصادر	١١٧
فهرس الموضوعات	١٢٣